ياسمين خليفة
نافذة في السماء
رواية

ياسمين خليفة

نافذة في السماء

رواية

2018

تحذير

هذا الكتاب متاح الكترونيا فقط, وأي اقتباس أو تقليد أو محاولة لطبعه ورقيا دون موافقة مؤلفة الكتاب يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

إهداء

إلى كل روحٍ أُزهقت ظُلما

قال : فإذا نظرت في الليل إلى السماء حيث أكون في إحدى النجوم ضحكت أنا فيُخيل إليك أن سائر النجوم تضحك وهكذا يكون لك نجوم تُحسن الضحك

من رواية الأمير الصغير لأنطوان دو سانت اكزوبري

-1

اسمي باسل هاشم عبد المنعم عبد الله الأسيوطي, ولدت في القاهرة في الأول من سبتمبر عام 1984, وتوفيت في الرابع والعشرين من يوليو عام 2010.
يعتقد بعض الناس أن الإنسان يشعر بدنو أجله قبل موعد رحيله من الحياة بأربعين يومًا , ولكني لم أستقبل أي إشارة أو علامة تدل على أن هذا اليوم الصيفي الممل سيكون أخر أيام حياتي.
استيقظت في الظهيرة كعادتي, خرجت من غرفة نومي, مشيت في الصالة بخطوات متكاسلة, ألقيت نظرة سريعة على حجرات الشقة الخالية فداهمني إحساس موجع بالوحدة. تخيلت منظر أمي و زوجها مراد وهما مستمتعان بالجلوس على الشاطئ في الساحل الشمالي ومتابعة أخي رامي وهو يسبح في البحر.
جزء مني كان يود أن يكون معهم, ولكن كبريائي كان راضيًا لأنني تركتهم بالأمس وعدت إلى القاهرة.
بدأت رحلة النهاية عندما أخبرت أمي أن مصروفي أوشك على النفاد.
رأيت عينيها البنيتين تترددان في مقلتيه, قلت لها متوسلاً :"مش عايز أكتر من خمسين جنية ". سطع العطف على ملامحها السمحة و بشرتني أنها ستدخل حجرة النوم لكي تحضر لي النقود. رفع مراد بصره عن الجريدة التي كان يحملها بين يديه ورمقني باستياء, شعرت بالقلق عندما رأيته يدخل

الحجرة وراء أمي ويغلق الباب, بعد دقائق خرجت أمي من الحجرة مع مراد, ثم قالت لي بنبرة صارمة:

- أنا مش هقدر اديلك الفلوس لأني عارفة إنك هتصرفها بسرعة وهترجع تطلب مني تاني بكره , انت ضيعت فلوس أبوك بسبب تبذيرك , حاول تدبر نفسك بالمصروف اللي معاك علشان تتعلم الادخار.

رأيت مرادًا يومئ برأسه في صمت, تملكني الغيظ منه, أردت أن أواجهه وأتهمه بالإيقاع بيني وبين أمي لكني تمكنت من السيطرة على أعصابي في أخر لحظة, المواجهة لن تأتي بأي فائدة ولن تغير الواقع, مراد يملك كل شيء, يملك شقة الساحل الشمالي ويملك النقود التي أنفقها حتى عقل أمي صار ملكا له من زمن طويل.

من حق مراد أن يتحكم في ممتلكاته كما يشاء, ومن حقي أنا أيضا أن أتحرر من سجنه وأعود إلى المكان الوحيد الذي لا يزال يحمل اسم أبي.

بدا الانزعاج على ملامح أمي عندما أخبرتها أنني قررت العودة إلى القاهرة لأنني مللت من الحياة في الساحل الشمالي, كادت أن تطلب مني البقاء ولكن مرادا نصحها أن تتركني أرحل ظنا منه أن رغبتي في الرحيل ما هي إلا حيلة للتلاعب بها والضغط عليها حتى تعطيني النقود.

رماني بنظرة استهزاء وقال لي قبل أن أرحل : " بكره هترجع تاني لما تزهق من القعدة لوحدك".

خرجت من الشقة حاملاً حقيبتي على ظهري منكساً رأسي شاعرًا بأنني ضيف غير مرغوب في وجوده, توجهت إلى سيارتي وقبل أن أفتح بابها رفعت رأسي لأعلى, وجدت أمي تقف في الشرفة وتتابعني بنظرات عطوفة

حزينة, ضحكت على فشلها في تمثيل القسوة , بدا عليها الحرج عندما رأتني أنظر إليها, لوحت لها بيدي مودعا, لكنها لم تلاحظني لأنها أشاحت ببصرها بعيدا عني وصوبته على الشاطئ.

***

وضعت طعام الإفطار على المنضدة , ضغطت على زر تشغيل الكمبيوتر, فوجئت أنه لا يعمل, فصلت عنه الكهرباء, عاودت تشغيله ولكنه ظل مصرًا على صمته.

تطلعت إلى شاشته السوداء بإحباط, فككت أسلاكه ثم غيرت ملابسي على عجل, أوصلته إلى مركز تصليح الحاسبات الذي يقع على بعد شارعين من المنزل, وعدني المهندس رمزي مدير المركز أنه سينتهي من إصلاحه اليوم.

خرجت من المكتب وأنا أشعر بالحيرة, الألعاب والموسيقى والأفلام المفضلة لدي مجتمعة داخل هذا الصندوق الصغير فكيف سأقضي وقتي بدونه ؟.

دسست يدي في جيبي وأخرجت العشرين جنيهًا التي تبقت لدي من مصروفي.

كان أمامي اختيارين: أن أوفر نقودي و أعود إلى المنزل أو أن أقضي على الملل الذي بدأ يزحف على نفسي بمجرد أن أدركت أنني سأعيش بدون كمبيوتر اليوم.

ولأن وقت تعلم الادخار فات بالنسبة لي انطلقت بدون تردد إلى محل " البلاي ستشين " الذي يقع في أول الشارع.

رحب بي الأستاذ مرعي صاحب المحل ممازحًا :" يارب الكمبيوتر بتاعك يعطل على طول علشان تشرفني". كان المحل خاليًا إلا من ثلاثة أولاد كانوا يلعبون بجوار بعضهم في ركن بعيد. جلست أمام أكبر جهاز في المحل,

انغمست سريعًا في تلك اللعبة التي كنت أقوم فيها بدور شرطي, كانت مهمتي أن أطارد مجموعة من المجرمين في الشوارع والأزقة حتى أقبض عليهم, نجحت خلال دقائق في القبض على أول مجرم , أحرزت مئة نقطة, ازداد حماسي و اندماجي في اللعبة حتى انفصلت عن العالم الخارجي تمامًا .

فجأة شعرت بيدٍ ثقيلة تسقط فوق كتفي الأيمن وتنتزعني من العالم الافتراضي.

هززت كتفي حتى أتخلص من تلك اليد, ولكنني فوجئت بيد أخرى أثقل منها تسقط فوق كتفي الأيسر.

سمعت صوتًا غليظًا مجسمًا كأنه خارج من سماعات عالية الجودة يهتف " انت باسل هاشم ؟", استدرت لكي أتعرف على صاحب الصوت , رأيت رجلاً عملاقًا فارع الطول وجهه مفلطح, عينيه سوداوين واسعتين وبشرته البيضاء تشوهها الجروح والندوب, بدا لي كأنه كتلة من العضلات المفتولة و تولد لها جسدًا, أرسل نحوي نظرات مخيفة أحدثت زلزالاً في جسدي بقوة ستة ريختر, أمرني بالوقوف فصحت في وجهه متسائلا :

" انت مين وعايز إيه ؟"

رد علي بنبرة ساخرة : " أنا عملك الأسود وعايز أخلص عليك ".

شدني من ياقة قميصي ثم كور قبضة يده وصوبها إلى أنفي, اختل توازني وسقطت على الكرسي وأنا أتأوه, حملني من على الكرسي وقذفني على المنضدة التي كان يجلس أمامها الأستاذ مرعي كأنني كرة صغيرة من البلاستيك.

تضاعف ألمي وارتفع صياحي حتى توقف الأولاد عن اللعب و تطلعوا ناحيتي في هلع.

صاح الأستاذ مرعي في الرجل " أرجوك كفاية ".

سأله الرجل مزمجرًا " تحب أروقك زيه ؟" .

انكمش الأستاذ مرعي في مكانه خوفًا ثم أخفض من نبرة صوته قائلا "اطلع بره لو عايز تتخانق معاه, أنا مش عايز دوشة ومشاكل هنا".

حملني الرجل إلى الخارج بين ذراعيه كما يحمل الحيوان المفترس الفريسة بين فكيه, توسلت إليه حتى يشرح لي سبب اعتدائه علي فكانت إجابته ضربة قوية على رأسي أسقطتني على أسفلت الشارع المشبع بسخونة شمس يوليو الحامية.

رأيت وأنا مستلقي على الأرض أقدام كثيرة تتجمع وتصطف بجواري, اكتشفت أنني أعرف أغلب أصحابها. هذا عم عنتر حارس العمارة وأولاده الثلاثة, وهذا سعد سائس الجراج, وهذا وائل وحاتم وعبد الرحمن جيراني وأصدقاء الطفولة, وهذا عم عبد الله صاحب متجر الخردوات الذي كنت اشتري منه الحلوى وأنا طفل والسجائر وأنا كبير, وهذا الأستاذ مسعود صاحب شركة السياحة التي تقع تحت العمارة, وهذا الأستاذ بيومي صاحب المغسلة التي تقع في العمارة المجاورة.

كلهم يعرفوني جيدًا ومع ذلك كانوا يتطلعون إلي كأنهم يروني لأول مرة في حياتهم ,انفتحت أفواههم وشخصت أبصارهم وهم يتابعون الركلات والضربات العنيفة تتساقط على أنفي ووجهي ورأسي وضلوعي كأنهم

يشاهدون مباراة على قناة المصارعة الحرة. لم أفهم سبب اهتمامهم بمشاهدة تلك المباراة, ألا يدركون أن نتيجتها محسومة ؟!.
تألمت في تلك اللحظات أكثر مما تألمت في عمري القصير كله, تألمت حتى شعرت أن الآم البشر كلها اجتمعت في جسدي النحيل, شعرت أن عظامي تنكسر وتتفتت إلى قطع صغيرة, بقيت متأرجحًا بين اليقظة والغيبوبة, لم أعد قادرا على رؤية أي شيء, فكل شيء أمامي صار مغطى بطبقة كثيفة من الضباب.
صوتي كان سلاحي الوحيد والأخير للدفاع عن نفسي, صرخت, استغثت ,توسلت ,
:" الحقوني أنا معلمتش حاجة غلط ".
صوب الرجل قبضته إلى فكي حتى يخرسني, شعرت أن أسناني تنخلع من مكانها وتعوم في أنهار الدماء التي غمرت فمي.
سمعت غابة من الأصوات المتداخلة ترتفع وتتحول إلى صياح وصراخ وعويل,
تناهي إلى سمعي صوت رجل يهتف :" نادوا على عمه بسرعة ".
أخذ الرجل يضرب رأسي في الأرض بقوة عدة مرات, اجتاحتني رعشة عنيفة واشتعل جسدي كأنه كتلة من الجمر, أغمضت عيني و تكورت على نفسي في وضع الجنين الذي كنت عليه قبل أن أخرج إلى هذا العالم, سمعت دقات قلبي تطن في أذني كأنها سرب من النحل ,فجأة توقف الضرب وتوقف الألم وتوقفت المعاناة واضمحلت الأصوات حتى تلاشت وعم الصمت التام

,واستحال كل شيء أمامي إلى عتمة بالغة كأنني أجلس في حجرة انقطعت عنها الكهرباء.

-2

فتحت عيناي لأجد نفسي واقفًا في حجرة صغيرة منخفضة الإضاءة, تملكني الرعب عندما نظرت إلى الأسفل و لم أجد جسدي, أين أنا ؟ , ماذا حدث لي ؟ و كيف أتيت إلى هنا ؟.

بحثت حولي ففوجئت أن جسدي مُلقى على فراش الحجرة ومغطى بملاءة بيضاء, ازداد شعوري بالرعب, كيف ولماذا انفصلت عن جسدي ؟. ظننت أن هذه المشاهد جزءًا من حُلم غريب انزلقت إليه بعد غيابي عن الوعي, ولكني اكتشفت أن ما أعيشه حقيقة أغرب من الأحلام عندما سمعت صوتًا رخيًما يهتف باسمي, إنني أعرف صاحب هذا الصوت جيدا رغم أنني لم أسمعه يناديني منذ زمن بعيد .

استدرت لأجد أبي واقفا بجوار دراجتي التي اشتراها لي عندما كنت صغيرًا, كان كما   رأيته أخر مرة شابًا بهي الطلعة يرتدي جلبابًا أبيض, تحيط به هالة ذهبية من النور وتزين وجهه ابتسامة مشرقة, كنت مشتاقا لرؤيته بشدة, ركضت نحوه لكي احتضنه, فأنعش نوره روحي

سألته:

-كيف نزلت إلى هنا ؟

ابتسم قائلاً:

-أنا لم أنزل إليك, أنت الذي جئت إلي.

سألته بخوف:

-هل أنا ميت ؟.
ظل محافظًا على ابتسامته وهو يجيبني :
-هذا اللفظ لا يناسب عالم الأرواح الذي دخلته, الأرواح لا تعرف الموت, كل ما في الأمر أن روحك غادرت الأرض لكي تبدأ مرحلة أخرى من الحياة, والحياة التي ستعيشها في هذه المرحلة ستكون أفضل كثيرًا من حياتك الدنيوية لأنك ستعيش بدون احتياجات جسدك و قيود عقلك, لا تخف و اركب معي الدراجة وستكتشف كل شيء.
ابتسامته الواثقة شجعتني على الركوب, ركبت في المقدمة وركب أبي خلفي, قبل أن أقود الدراجة وجدتها ترتفع عن الأرض بسرعة وتصعد إلى السماء وتتجول بين السُحب بسهولة و يسر حتى توقفت فجأة.
نزلنا من عليها لنجد بابًا ذهبيًا طويلاً عبرنا من خلاله إلى حديقة واسعة تمتد إلى ما لا نهاية, تكتظ بأشجار وارفة و أزهار وفراشات وطيور رائعة متنوعة الأشكال والأحجام والألوان, تقطعها أنهار فيروزية تنساب مياهها في هدوء و تتلألأ سماؤها بعشرات الشموس, ويهب منها هواءً باردًا كهواء الصحراء, منعشًا كهواء البحر,رائحته أرق من الياسمين وأطهر من المسك.
رأيت أطفالاً يركضون وراء بعضهم ضاحكين, و رجال ونساء يرتدون ملابس مخضبة بألوان الطيف الزاهية, يجلسون أمام الأنهار يتأملون مياهها ويتحدثون بأصوات خافتة ووجوه باسمة.
رأيت فتاة حسناء و رجلاً وسيمًا يتجهان نحوي ليرحبا بوصولي.

سألتهما :" من تكونان ؟ " , قالت لي الحسناء :" أنا جدتك رجاء " , وقال لي الرجل: "أنا جدك عبد المنعم, يبدو أنك لم تتعرف علينا لأنك لم تعرفنا إلا في سن الشيخوخة".

سألتهما مستغربا :

- وكيف عدتما إلى سن الشباب ؟

قالت لي جدتي:

- لقد ودعنا الشيخوخة بعد أن ودعنا الأرض, الجميع هنا أطفال وشباب.

تطلعت إلى أبي مندهشا وسألته:

- هل هذه هي الجنة ؟

-بالطبع لا, هذا هو المكان الذي تجتمع فيه أرواحنا قبل أن ندخل الجنة, نحن نعيش هنا حتى نعتاد على الاستمتاع بالجمال قبل أن نعيش في الجنة الحقيقية, وأفراد كل أسرة يجتمعون معًا في روضة كبيرة, فكل من تراهم هنا هم أعمامك وعماتك وباقي أقاربك , وهذا الصغير الذي يطارد الفراشات هو عمك سامح الذي ترك الأرض في سن الطفولة, وهذه الحسناء التي تجلس بعيدًا هي جدتك الكبيرة سليمة , وهؤلاء كلهم أجدادك القدماء الذين تركوا الحياة قبل أن تدخلها.

- وكيف تقضون وقتكم في الجنة, أقصد في هذه الروضة الجميلة ؟

ضحك وضحكت معه كل مخلوقات الروضة ثم نبهني :

- ثاني لفظ لا يجب أن تستخدمه هنا هو الوقت. الوقت مفهوم يعرفه أهل الدنيا فقط ؛لأنهم مرتبطون بوظائف ومسئوليات, أما نحن أرواح حرة بلا

احتياجات أو رغبات أو مشاكل, ووظيفتنا الوحيدة هي الاستمتاع بهذا الجمال الساحر وحمد الله وشكره على نعمه. أتوجد حياة أفضل من هذه الحياة ؟.

- بالطبع لا, والأفضل أنني لم أتوقع أنني سأكون هنا, لأنني كنت أخشى أن تكون ذنوبي أكثر من حسناتي.

تذكرت الحادث الذي تسبب في خروجي من الدنيا فترددت قبل أن أسأل أبي:

-هل بإمكاني أن أعرف أخبار أهل الدنيا ؟

رد علي سؤالي باستغراب:

-نعم , ولكن ما فائدة أن تعرف أي شيء عن الدنيا وأنت لم تعد من أهلها ؟ ,ثم إن ما ستعرفه سيُحزنك وسيُعطلك عن الاستمتاع بكل هذا النعيم.

- و لكن أحبابي لا يزالون من أهل الدنيا,ولا تنسً أنني تركت الحياة مقتولا وأريد أعرف من قتلني ؟ولماذا قتُلت ؟

تفهم أبي رغبتي فأشار إلى السماء قائلا:

-إذا أردت أن تعرف أخبار أهل الدنيا تطلع معي إلى الناحية البعيدة من السماء.

تطلعت معه إلى أعلى, فرأيت كوة كبيرة تنفتح في كبد السماء, وسرعان ما اتسعت هذه الكوة وتحولت إلى نافذة طويلة بيضاء, انفتحت النافذة تلقائيا ثم تحولت إلى شاشة تعرض صورا متتابعة, هذه الصور أظهرت لي بالتفصيل كل ما حدث على الأرض منذ وفاتي.

-3

في اللحظة التي غادرت فيها الدنيا كانت أمي تجلس في شرفة شقة الساحل الشمالي تحتسي قهوة الصباح, و توزع اهتمامها بين التطلع إلى مجموعة من الأطفال يبنون قصورًا من الرمال على شاطئ البحر وبين قراءة عناوين الأخبار في الجريدة.

سرت في بدنها رعشة قوية عندما رن هاتفها المحمول ورأت رقم عنتر حارس العمارة يظهر أمامها لأنه لم يكن معتادًا على الاتصال بها, اهتزت يديها وهي تفتح الهاتف فاندلقت منها القهوة على الأرض.

حياها عنتر بنبرة حزينة وشرح لها على عجل أن هناك رجلاً اعتدى علي بالضرب المبرح في الشارع ثم هرب قبل أن يتمكن الناس من القبض عليه.

انتفضت أمي من مكانها في هلع وهاجمته بالأسئلة :

-ضربه ؟؟ مين ده اللي ضربه ؟ وإزاي سبتوه يهرب ؟ ,وباسل عامل إيه ؟

رد عليها بصوت مرتجف:

- هو تعبان , بس إحنا طلبنا له الإسعاف وبلغنا البوليس, ياريت بلاش تتأخري عليه,وأنا هتصل بيكي تاني بعد لما يروح المستشفى علشان أطمنك عليه.

***

استيقظ مراد ورامي مفزوعين على صوت أمي وهي تأمرهما بالعودة إلى القاهرة الآن.

أخذت تلملم ملابسها وأشيائها وتلقيها في الحقيبة بشكل عشوائي, أراد مراد ورامي أن يفهما منها تفاصيل الحادث ولكنها ظلت تكرر نفس الجملة " مفيش وقت للكلام ,لازم نلحق باسل بسرعة"

حاول مراد أن يهدئ من روعها قائلا " بلاش تكبري الموضوع, تلاقيه هياخد له غرزتين وخلاص" كلامه أصابها بالغضب فألقت عليه نظرة حادة ودمدمت"طبيعي إنك تبقى مش خايف عليه لأنك مش أبوه".

أوجعته كلماتها لقد كان مراد يشعر بخوف عارم علي, لكنه كان يحاول أن يطرد خوفه بالتهوين والاستخفاف, أما رامي فكان هادئا مستسلمًا لأوامر أمي ولكنه كان مثل مراد يحاول مصارعة الخوف الذي أحكم سيطرته على نفسه.

***

لو كانت هناك طائرات بإمكانها أن تسافر من الساحل الشمالي للقاهرة لقام أفراد أسرتي باستئجار أحدهم, ولكن عامل المسافة أجبرهم على الوصول بعد ثلاث ساعات ونصف , تلك الساعات مرت عليهم كأنها سنوات ضوئية.

ظلت أمي تحدق إلى شاشة هاتفها ي انتظار مكالمة عنتر بأعصاب مشدودة وقلب منقبض وعقل غائب عن المكان والزمان, أخذ رامي يراقب هاتفها من بعيد بقلق, أما مراد فركز بصره على الطريق محاولا احتواء خوفه.

طال الوقت والهاتف صامت, وصمته أعطى أفراد أسرتي أسبابًا جديدة للخوف, قررت أمي أن ترحم نفسها من عذاب الانتظار وتتصل به, بمجرد أن رد عليها صاحت فيه : " ليه متصلتش كل ده؟ فيه حاجة حصلت لباسل؟"

لم يدر ماذا يقول لها ؟, لقد ذهب للمستشفى وهناك أخبره الأطباء أنني لفظت أنفاسي الأخيرة قبل أن يتمكنوا من إنقاذي.

أشفق عليها من هول الخبر فحاول أن يمهده لها : " هو دلوقتي في أوضة العمليات والدكاترة بيقولوا إن حالته صعبة,لو في أخبار جديدة هتصل بيكي ."

بعد أن أنهت أمي المكالمة تطلعت إلى مراد ورامي والخوف والأمل يتصارعان داخلها   ثم قالت لهما :" هو دلوقتي في العمليات, بس إن شاء الله هيبقى كويس ".

حاول أفراد أسرتي أن يهدئوا من حدة خوفهم بقراءة الأدعية والتضرع إلى الله أن ينجيني ويخرجني سالما من العملية. مر الوقت بطيئًا ثقيلا ولم يتصل عنتر, عاد الخوف ينهش قلوبهم, قررت أمي أن تعاود الاتصال بعنتر, كانت تتوقع أن يطمئنها ويخبرها أنني خرجت من العملية وأن كل شيء على ما يرام ,ولكنه أطلق تنهيدة عميقة, ثم أخبرها بالحقيقة مستخدمًا الجملة المعتادة " البقاء لله ".

هزت أمي رأسها بالنفي ثم سألته بانفعال:

- يعني إيه؟, انت مش قلت لي إنه كويس.

- أنا مقلتش كده يا مدام, أنا قلت لك إنه تعبان وحالته صعبة.

- لأ, انت قلت لي إنه كويس , انت كداب, انت عملت إيه في ابني ؟ ايه اللي حصل لإبني ؟ راح فين ابني ؟

شعرت أمي أن حجرا ثقيلا يسقط على رأسها فجأة , ألقت الهاتف على الأرض و صرخت ثم أغمضت عينيها وغابت عن الوعي, نظر لها مراد ورامي بهلع, أوقف مراد السيارة, هز رامي وجهها برفق " ماما , فوقي ؟".

أخذ مراد زجاجة المياه التي كانت موجودة بجوار مقعده وصبها على وجهها

" سوسن فوقي ". شهقت أمي ثم فتحت عينيها في فزع . تحسست وجهها وملابسها المبللة باستغراب.

ربت رامي على كتفها ثم سألها وهو يلهث :

- إيه يا ماما ؟ إيه اللي حصل, عنتر قالك إيه ؟, إيه اللي حصل لباسل ؟.

أمسك مراد ذراعها وأعاد عليها نفس السؤال ولكن بطريقة مباشرة :" هو باسل اتوفى ؟" , فتحت أمي فمها ثم أطبقته سريعا, لم تستطع الكلام لأنها لم تتمكن بعد من استيعاب الخبر, ولكن مراد عرف الإجابة عندما رأى وجهها يتحول من بياض الحيوية إلى بياض الموت, والدماء تفر من شفتيها الوردتين, والنور يهرب من عينيها الجميلتين.

هتف رامي متوسلا " أرجوكي يا ماما قولي إن باسل لسه عايش ", ولكنه تأكد من صحة تخمين والده بعد أن رآها تطرق برأسها في الارض وتعجز عن التطلع إليه.

اتسعت عينا رامي من الذهول وامتقع وجهه, ترك رأسه تسقط على صدره, ترك الدموع تسقط من عينيه وترك عقله يعود إلى الخلف, إلى الأمس, إلى أخر مرة رآني فيها, كم كان مسرورًا وهو يشاهدني أتلقى درسًا في الادخار من أمي, وبينما كنت أعد نفسي للرحيل كان مشغولا بمشاهدة فيلم أجنبي , قبل أن أغادر المنزل اقتربت منه وودعته قائلا" أنا ماشي يا رامي ".

قال لي " مع السلامة " بلا اكتراث بدون أن يرفع عينيه من على التليفزيون, تألم وهو يسترجع هذا المشهد, أحس أنه ارتكب جرائم كثيرة في حقي , فرحته كانت جريمة, تجاهله كان جريمة, فتوره كان جريمة ولكنه معذور,فالنهاية لا يسبقها دائما إنذار.

كان مراد مصدومًا مثل رامي وأمي ولكنه أختار أن يعبر عن صدمته بالغضب والتذمر , فأخذ يسألها " إزاي خناقة تتحول لجريمة قتل بالسرعة دي وليه الناس سابوا المجرم يهرب ؟ "

تظاهرت بأنها لم تسمعه و أخذت تتطلع إلى الطريق من زجاج السيارة في وجوم , انغمس مراد في اختراع أسباب للحادث " مش يمكن يكون حمادة ابن عنتر هو اللي ضربه وأبوه مخبي عليكي, أنا عارف الولد ده بلطجي غير إنه اتخانق مع باسل قبل كده ؟".

حاول أن يستدر منها أي إجابة ولكنها ظلت متشبثة بالصمت متظاهرة بالصمم.

بعد أن سأم من الكلام مع نفسه أخذ يسألها عن سر صمتها.

أدارت رأسها ناحيته ثم صاحت في وجهه:

- بطل الكلام الفارغ ده كله. انت عارف كويس إنك السبب في اللي حصل لباسل .

أطرق مراد برأسه في حزن ووضع يده على أنامل أمي الباردة ثم غمغم بأسى:

- أنا آسف يا سوسن والله ما كنت عارف إن ده اللي هيحصل .

انتزعت يدها من تحت قبضته و قالت له بصوت متهدج:

- أنا غلطانة إني سمعت كلامك ومارضتش أديله الفلوس, انت اللي ضيعت ابني مني ,حسبي الله ونعم الوكيل فيك .

****

وصل أفراد أسرتي أخيرا إلى المستشفى ثم توجهوا مسرعين إلى موظف الاستقبال , بمجرد أن ذكرت أمي اسمي أومأ لها الموظف برأسه ثم أشار بأصبعه بعيدا, فوجئت برجل يرتدي زي الشرطة يقترب منها ويسألها بنبرة مهذبة إذا كانت والدتي, أومأت برأسها فقدم لها التعزية وأخبرها أنه ضابط في قسم الدقي وأنه قام بفتح محضر للتحقيق في وفاتي, شرح لها أن التحقيق في وفاتي سيصل إلى النيابة, وأن النيابة ستأمر بانتداب طبيب شرعي لفحص الجثة ومعرفة سبب الوفاة وأن الفحص سيأخذ وقتا طويلا مما سيؤدي إلى تأخر الدفن .

توقف الضابط عن الكلام للحظات ثم قال لها بصوت منخفض: " وبما إن إكرام الميت دفنه فأنا ممكن اقفل المحضر بسرعة لو حضرتك عايزة تدفني ابنك النهاردة "

هزت أمي رأسها بالنفي: ",أنا معنديش مشكلة في تأجيل الدفن لغاية لما الطب الشرعي يخلص فحص, أهم حاجة بالنسبة لي إنكم تقبضوا على المجرم اللي قتل ابني ".

بدا الإحباط على وجه الضابط فأومئ برأسه واجمًا ثم ترك أمي وانصرف في هدوء .

طلبت أمي من موظف الاستقبال أن يسمح لها بالدخول إلى ثلاجة المستشفى لكي تودعني, حاول مراد أن يُثنيها عن ما تنوي فعله حتى لا تشوه صورتي في ذاكرتها لكنها ردت عليه بغضب:

-حرام عليك مش كفاية اللي عملته عايز كمان تحرمني من إني أشوف ابني!

تطلعت إلى رامي ثم أشارت له قائلة :" هتيجي معايا ", أومأ رامي برأسه وهم بالسير وراءها ولكن والده أمره بالتراجع " أوعى تدخل مش هتقدر تستحمل المنظر ".

وقف رامي متصلبا في مكانه وقد استولى عليه الخوف. نظرت له أمي بضيق ودمدمت

" انت بتسمع كلام أبوك في كل حاجة , خليك واقف جنبه, أنا هروح اطمن على باسل لوحدي أحسن"

هز مراد رأسه وتطلع إلى أمي في ذهول, نعم , لم تكن أمي مصرة على الدخول ثلاجة المستشفى حتى تودعني ولكن لأن جزءا منها كان يعتقد أنها عندما ستدخل ستجدني نائما وبعد أن تلمس جسدي سأتحرك وأفتح عيني وأعود إلى الحياة .

فتح العامل درج الثلاجة الحديدي, فظهر جسدي مغطى كله بملاءة بيضاء, رفع العامل الملاءة من على جسدي. حدقت أمي في وجهي, كادت عينيها تخرج من محجريها من فرط الهلع, غطت وجهها بيديها ثم فرت من الحجرة سريعًا حتى تمنع تفاصيل وجهي المشوه من الالتصاق بذاكراتها, اضطرت أن تتوقف عن المشي بعد أن خارت قدميها حتى صارتا أضعف من أن تحملاها, ترنحت وكادت أن تسقط لولا أن مرادًا جرى عليها وسندها, و قال لها لائمًا : " مش قلتلك بلاش تدخلي " .

أشارت له حتى يتوقف عن الكلام ثم ابتعدت عنه وطلبت من رامي أن يسندها حتى السيارة .

***

وصلت سيارة مراد إلى الشارع الذي نسكن فيه, لم يكد أفراد أسرتي يخرجون من السيارة حتى اجتمع الجيران حولهم وأخذوا يغدقوهم بعبارات التعزية المكررة بينما كان الحزن يغطي وجوههم و الدموع تنهمر من عيونهم.

تطلعت أمي إليهم بحنق وصاحت فيهم : " دموعكم ملهاش لازمة , بدل لما تبكوا على باسل مش كنتم أنقذتوه أو حتى قبضتوا على المجرم اللي قتله "

أقسم بعضهم أنهم لم يكونوا متواجدين وقت وقوع الجريمة , بينما أدعى آخرون أنهم لم يعرفوا أنني كنت الشخص الذي يتعرض للضرب.

سمعت أمي رجل وامرأة يهتفان باسمها, استدارت للخلف فوجدت عمي عاطف الذي يسكن في العمارة المواجهة لنا وزوجته سميرة يقتربان منها, احتضنتها سميرة وهي تبكي بدون كلام, بينما تلعثم عمي عاطف وهو يشرح لها ما حدث لي :" أنا كنت بره ورجعت لقيته مرمي في الشارع متبهدل ودمه سايح والناس ملمومين حواليه, سألتهم مين عمل فيه كده , قالوا لي واحد ضربه وهرب, استنيت لغاية لما عربية الاسعاف جت وركبت معاه , قعدت شوية في الاستقبال, الدكتور طلع وقالي انه ...

لم يستطع إنهاء العبارة ,انهار باكيا ثم قال لها بصوت مختنق" أنا لغاية دلوقتي مش مصدق انه خلاص راح, هو انتي ليه سبتيه وسافرتي ؟"

سؤال عمي هيج أعصابها فردت عليه بصوت راعد" انا مسبتوش هو اللي سابني"

اضطر مراد أن يتدخل في الحديث , تطلع إلى عمي بامتعاض ثم جذب أمي بعيدا عنه وهو يقول له " دي قصة طويلة مش وقت نشرحها دلوقتي, عن إذنك, تعالي يا سوسن".

ركبت أمي مع رامي ومراد المصعد , بعد أن خرجوا منه وجدوا المهندس رمزي صاحب مركز تصليح الحاسبات يقف أمام باب الشقة, امتقع وجهه عندما رآهم, صافحهم و قدم لهم التعزية وأخبرهم أنه قام بتصليح الكمبيوتر الذي أرسلته له اليوم وأنه لن يأخذ منهم ثمن التصليح. نظروا للكمبيوتر بأسى ثم وجهوا له الشكر, وضع مراد المفتاح في الباب, دخلت أمي المنزل بخطوات بطيئة وهي تحمل الكمبيوتر بين ذراعيها, ثم توجهت إلى غرفة نومي وأغلقت عليها الباب .

-4

وضعت أمي الكمبيوتر تحت مكتبي ثم فتحت دولابي. دفنت رأسها داخل ملابسي , استنشقت رائحتي فأحست أن يدي تخرج من أكمام الملابس لتربت عليها وتطفئ النيران المشتعلة في قلبها, أخذت تبحث في الدولاب حتى أخرجت ألبوم صوري القديمة , أغلقت الدولاب ثم استلقت على فراشي وفتحت الألبوم, لمعت عيناها ببريق الحنين عندما نظرت إلى أول صورة في الألبوم, إنها صورتي وأنا طفل رضيع.أخذت تتأمل بشغف فمي الكبير الخالي من الأسنان ووجهي الممتلئ الذي تغطيه ابتسامة عريضة تصل إلى أذني.
كانت هذه هي أول صورة التقطتها أمي لي بعد ميلادي بأسبوع واحد حتى ترسلها إلى أبي الذي منعه عمله كمحاسب في السعودية من حضور مولدي.
كنت دوما أخجل من النظر إلى تلك الصورة لأنني كنت أبدو فيها كالفتاة بسبب شعري الأسود الغزير وفستاني الأبيض الواسع.

رأت أمي في المنام قبل أن تنجبني بثلاثة أشهر أنها تحمل فتاة بين ذراعيها فاستيقظت من الحلم مسرورة وذهبت لشراء فساتين كثيرة, ولكنها فوجئت بعد أن أنجبتني أنني ولد, فاضطرت أن تجعلني أرتدي فساتين لمدة أسبوعين حتى استردت صحتها وتمكنت من شراء ملابس تناسبني.

كانت أمي لا تحب شيئًا في الحياة أكثر من أن تقص علي ذكريات ميلادي وطرائف طفولتي . أخبرتني أن السعادة والذهول امتزجا في قلبها عندما رأتني أبكي وأمد لها يدي حتى تحملني بين ذراعيها, لم تصدق أن الجنين الذي حملته

لشهور طويلة صار إنسانًا له رأس وقدمين وأصابع وعينين وأنف وأذنين, وأن بإمكانها أن تأخذ معها هذا الإنسان الصغير إلى المنزل وتصبح مسئولة عنه إلى الأبد.

كنت طفلا شقيًا كثير الحركة عنيدًا لا يقبل بأي طعام إلا أنني كنت محبوباً في العائلة بسبب خفة ظلي وسرعة بديهتي. كانت أمي تعتقد أن طفولتي هي النموذج الأمثل للطفولة الهادئة السعيدة, وكنت أتفق معها رغم أنني كنت أرى أن هناك شيئا هاما قلل من سعادتي كطفل , هذا الشيء هو غياب أبي.

كنت أعشق شهر يوليو لأنه كان شهر أجازة أبي السنوية , فبقدر ما كان غيابه الطويل يؤلمني ويحزنني ويشعرني بخواء عميق بقدر ما كان حضوره القليل يسعدني ويبهجني , ويعطيني الحب و الحنان المشوب بالحزم الذي أودعه الله عند الأب.

أتذكر أن أمي كانت تقوم بتنظيف الشقة قبل وصوله ثم تذهب للكوافير حتى يصبغ لها شعرها باللون الأصفر, وتجوب محلات وسط البلد لكي تشتري ملابس جديدة فاخرة لكي تبدو أمامه في أفضل مظهر.

في يوم وصوله كان جدي يأخذنا بسيارته العتيقة للمطار حتى نستقبله, نظل واقفين على أهبة الاستعداد كأننا في انتظار وصول ملك أو رئيس جمهورية .

أخيرًا كان أبي يهل علينا حاملاً على شفتيه ابتسامته الساحرة , وحاملاً في قلبه أشواق عام بأكمله , وحاملاً معه جبال من الحقائب والهدايا.

كنت أتعجب من سخائه المفرط في تقبيلي واحتضاني كل بضع دقائق, سخائه في الضحك واللهو والمزاح, سخائه في الألعاب والحلوى التي يشتريها من

أجلي, بعد أن كبرت أدركت أن سخائه الموقت كان محاولة منه للتعويض عن غيابه الدائم .

كان يوم وصوله أجمل أيام السنة بالنسبة لي ويوم سفره أتعسها وأشقاها على نفسي, بكائي وتشبثي به أجبره على تأجيل سفره أكثر من مرة, وبعد ذلك بات يتعمد السفر في وقت نومي حتى استيقظ لأجده اختفي من المنزل.

سألته في أخر مرة رأيته فيها عن سبب غيابه أغلب شهور السنة عني فقال لي:

-أنا بشتغل بره علشان أجيب لك كل اللي انت عايزه.

-بس أنا مش عايز حد غيرك يا بابا.

زحفت الدموع على عينيه قبل أن يؤكد لي أنه ليس لديه شخص أغلى مني في الحياة ثم وعدني أن يصطحبني العام القادم حتى أعيش معه في السعودية.

اعترف لي أبي بعد أن تقابلت أرواحنا أن الزمان لو عاد به للوراء لما عذبني وعذب نفسه بالابتعاد عني ولو ليوم واحد, أخبرني أنه كان ينوي الوفاء بوعده, لكن للأسف انتهت رحلته في الحياة قبل أن ينفذ ما أراده.

-5

وقفت أمي في الشارع وأخذت تهتف باسمي بأعلى صوتها, لم تتلق ردا , صعدت إلى أحد المنازل, فتح لها شخص غريب الباب , سألته بلهفة :

- أنا بدور على باسل هو عندك ؟ ",

- كان هنا ومشي.

-طب متعرفش راح فين ؟

رد عليها ببرود :

- لا معرفش

أغلق الباب في وجهها بعنف. تركته و ذهبت إلى منزل آخر, فتح لها شخص آخر الباب , طرحت عليه السؤال نفسه , فتلقت منه الإجابة نفسها, ظلت تجوب المنازل وتطرق أبواب الشقق فيفتح لها الناس الأبواب , تسألهم عني فيقولون لها أنني كنت هنا ثم غادرت فجأة ولا يعرفون أين ذهبت ؟, خرجت من البيوت وهي تشعر بالإحباط, هامت على وجهها في الشوارع حتى انقطعت أنفاسها وأصيبت بالإرهاق, سمعت مراد يناديها, فتحت عينيها وهي تلهث والعرق يتصبب من رأسها, ضوء الشمس الذي غمر الغرفة لسع عينيها فأغمضتهما ثم فتحتهما مرة أخرى ببطء, رمقها مراد بنظرة حانية ثم أعطاها صينية صغيرة عليها شطيرة جبن وكوب شاي:

- أنا حضرت لك الفطار , انتي مأكلتيش حاجة من امبارح

-مش عايزة أكل ,مليش نفس, سيبني لوحدي

- لا مش هسيبك لوحدك, مش هسيبك لغاية ما تموتي نفسك ,لأني مقدرش أعيش من غيرك, أنا ورامي مش ممكن نعيش من غيرك وبعدين مش هينفع تحبسي نفسك في الأوضة على طول.

أخرج مراد ورقة صغيرة من جيبه ثم أعطاها لأمي, شرح لها أن هذه الورقة هي استدعاء لها من النيابة حتى تدلي بشهادتها في الحادث الذي أدوى بحياتي.

ترك لها صينية الطعام وخرج من الغرفة, أخذت تجر جسدها بصعوبة حتى استطاعت أن تترك الفراش, شعرت أن جسدها ثقيل كأنها ازدادت مئة كيلو في يوم واحد , تناولت قضمات سريعة من الشطيرة ورشفت من كوب الشاي , توجهت إلى حجرة نومها, أخرجت عباءتها السوداء من الدولاب وارتدتها على عجل.

اصطحبها مراد في سيارته إلى مقر نيابة الدقي,كان يريد أن يرافقها ولكنها رفضت وطلبت منه أن ينتظرها في السيارة , دخلت مقر النيابة بخطوات مرتجفة, كانت تشعر أنها ليست شاهدة تقدم ما لديها من معلومات بل متهمة تتعرض للاستجواب.

رحب بها وكيل النيابة وقدم لها العزاء ثم شرع في طرح أسئلته عليها بشكل مباشر:

- حضرتك كنتي فين وقت وقوع الجريمة؟

تسلل إليها الإحساس بالذنب وهي تقول له :

- كنت في الساحل الشمالي .

- هل فيه شخص معين تشتبهي إنه قتل ابنك أو حرض الراجل ده على قتله ؟

أخذت تفتش في ذاكرتها عن أي وجوه أو أسماء مشبوهة ولكنها لم تجد سوى الفراغ .

أعاد وكيل النيابة صياغة السؤال لعلها تتذكر

- ابنك عنده أعداء ؟

ندت عنها ابتسامة مريرة :

-أعداء إيه ؟ باسل طول عمره مسالم وفي حاله لدرجة إني مكنتش بحس بوجوده في البيت.

شكرها وكيل النيابة على حضورها وأخبرها أن الطبيب الشرعي سينتهي من فحص الجثة غدا وأن بإمكانها أن تستلمها وتحصل على تصريح الدفن خلال يومين .

***

قامت النيابة باستدعاء عنتر حارس العمارة وابنه حمادة والأستاذ مرعي والجيران وأصحاب المحلات الذين رأوا الحادث للاستماع إلى أقوالهم.

اعترف عنتر أنه أخبر الجاني بوجودي في " البلاي ستشين " بعد أن أوهمه أنه جاء من طرف أحد أصدقائي لكي يعطيني هدية, بينما أكد الأستاذ مرعي لوكيل النيابة أن الجاني دخل محله وسأله عني, وبعد أن أشار له إلى مكاني توجه ناحيتي وانهال علي بالضرب المبرح بدون سبب, وعندما حاول أن يمنعه من ضربي هدده بالقتل ثم حملني بالقوة وجرني إلى الشارع, اعترف جيراني وأصحاب المحلات أنهم شاهدوا ذلك الرجل يضربني بعنف في الشارع حتى تركني غارقا في دمائي.

اتفق الشهود على أن الرجل الذي ضربني كان ضخم الجثة, فارع الطول وأبيض البشرة ولكنهم فشلوا في الاتفاق على هويته , منهم من زعم أنه مخبر من الشرطة ومنهم من زعم أنه تاجر مخدرات ومنهم من ادعى أنه بلطجي. عرض عليهم وكيل النيابة صور تجار المخدرات والبلطجية والمجرمين المعروفين في المنطقة, ولكنهم لم يتمكنوا من التعرف على الجاني بينهم.

***

تصدر خبر مقتلي صفحات الحوادث في كل الصحف القومية والخاصة, ولكن كل صحيفة نشرت الخبر بعنوان مختلف

"مقتل عاطل في الدقي في مشاجرة بالمطاوي والسنج", " مقتل مدمن على يد تاجر مخدرات " , " مقتل بلطجي في تبادل لإطلاق النيران بعد مشاجرة على فتاة " " مقتل لص على يد مخبر شرطة في الدقي ". صحيفة الأيام المستقلة هي الصحيفة الوحيدة التي لم تضعني في صورة الجاني, إذ نشرت صورتي في المشرحة ووضعت فوقها عنوان " مقتل شاب في الدقي في ظروف غامضة ".

من حسن الحظ أفراد أسرتي أنهم انفصلوا عن العالم الخارجي وتوقفوا عن شراء الجرائد منذ وفاتي ,لذلك لم تصل إليهم تلك الأخبار.

-6

لم تكد تمر ساعات على عودة أمي من النيابة حتى بدأت قريباتها وصديقاتها في التوافد على المنزل, وما أن خرجت إلى الصالون حتى هرعن نحوها لاحتضانها وتنافسن في التعبير عن صدمتهن الشديدة في وفاتي وتقديم التعازي لها, ربتت على أكتافهن ووجهت لهن الشكر بنبرة هادئة, رأت علامات الاستفهام تطل من عيونهن, قررت أن تغلق في وجوههن باب الأسئلة عن تفاصيل وفاتي, و أخذت تتحدث معهن عن أحوالهن, سألت سهير ابنة عمها عن أخبار زوجها المريض, باركت لميرفت ابنة خالتها على خطوبة ابنها , هنأت صديقتها فريال على نجاح ابنتها في الحصول على الشهادة الإعدادية بمجموع كبير. كان النساء يتبادلن معها الحديث ثم ينظرن إلى عينيها الخاليتين من الدموع ووجهها الصلب الخالي من المشاعر والانفعالات بذهول, اعتقدن أنها لا تزال في مرحلة الإنكار الناتجة عن الصدمة التي ألمت بها بعد وفاتي, لم يدركن أنها تخفي تحت هذا الوجه الصخري بركانا من الغضب .

الغضب من نفسها لأنها لم تمنعني من الرحيل, الغضب من مراد لأنه حرضها على منع النقود عني ومعاملتي ببرود , الغضب من المجرم الذي حرمني منها وغرس في قلبها جروح عميقة لن يداويها الزمن, الغضب من الجبناء الذين لم يتمكنوا من تخليصي من يديه, الغضب من الدولة التي لا تستطيع أن تحمي أرواح مواطنيها, الغضب من الأرض لأنها مازلت تدور

ومن الشمس لأنها مازلت تشرق, ومن الناس لأنهم مازالوا يأكلون ويشربون ويضحكون وينامون ويذهبون لأعمالهم بعد وفاتي, بل إنها كانت غاضبة من قلبها لأنه مازال ينبض ولم يتوقف حتى تترك الحياة وتتبعني إلى العالم الآخر.

احتملت أمي نيران غضبها وتظاهرت بالصبر والاستسلام وتقبل الأمر الواقع. أخذت تستمع إلى كلمات العزاء المكررة الخارجة من أفواه السيدات والدعوات لي بالمغفرة والرحمة, تلك الكلمات كانت تنزل علي أذنيها جوفاء خالية من أي معني أو تأثير. كانت تريد أن تصيح فيهن حتى يصمتن, كانت تريد أن تخبرهن أنهن لا يمكن أن يفهمن مشاعرها أو قدر معاناتها, وأنهن لا يمكن أبدا أن يستوعبن الدمار الذي يصيب قلب الأم بعد أن ترى ابنها الذي كان ينبض أمامها بالحياة يتحول إلى جثة مشوهة ملقاة في ثلاجة مستشفى.

سحب الغضب تكاثرت وتكثفت في قلب أمي ولكنها لم تتحول إلى أمطار إلا عندما ذهبت لاستلام جثتي بعد انتهاء الطب الشرعي من تشريحها, جاء يوم تشييع جثماني إلى مقابر أسرتي في المقطم, حمل مراد ورامي وأصدقائي نعشي بينما سارت أمي وباقي السيدات ورائهم بخطوات متثاقلة حتى المسجد المجاور للمقبرة من أجل أداء صلاة الجنازة , بعد انتهاء الصلاة بدأ الشيخ في تلاوة الأدعية

" اللهم يا حنان يا منان يا واسع الغفران اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه واكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ", " اللهم:احشره في زمرة

المقربين وبشره بروح وريحان وجنة النعيم."، اللـهـم انزلـه منازل الصديقين والشهداء والصالحين وحسنا أولئك رفيقا"

الصدق والخشوع والوجل الصاعد من صوت الشيخ حطم السدود المنيعة التي أقامتها أمي حول قلبها حتى تمنع الحزن من إغراقه, لم تستطع أن تردد ورائه " آمين " انهارت على الأرض وانخرطت في نوبة عنيفة من البكاء , تجمعن السيدات حولها وتنافسن في الربت عليها ومسح دموعها ثم ساعدوها على النهوض والخروج من الجامع ودخلن معها إلى المقابر, لم تقو على الاقتراب من المقبرة, لم تقو على مشاهدة جسد ابنها يستقر في باطن الأرض قبل جسدها, وقفت على بعد أمتار قليلة من المقبرة بينما تقدم رامي ومراد وأصدقائي إلى الأمام, أغمضوا عيونهم و أحنو رؤوسهم وبسطوا كفوفهم ثم أخذوا يرددون الأدعية وراء الشيخ, وضع الحانوتي جثماني الملفوف في الكفن الأبيض في المكان نفسه الذي دُفن فيه جثمان أبي من سنوات بعيدة , استغربت وأنا أشاهد التراب يهال فوق جسدي, شعرت أن هذا الجسد لا يخصني , أنا لست هذا الجسد الفاني , أنا الروح التي خلقت قبله وتوحدت معه واتخذته مسكنا لها لسنوات قليلة ولكنها أخيرا تحررت منه ومن الدنيا وعادت إلى جوهرها الأصلي لتواصل حياتها الأبدية .

***

اتخذ رامي لنفسه مجلسا منعزلا في السرادق الكبير الذي أقيم في مسجد الحامدية الشاذلية من أجلي, أخذ يحدق في الفراغ ويسترجع مشهد جنازتي بعينين حمراوين يغشاهما الذهول, أما مراد فلم يملك رفاهية الجلوس والتفكير مثل رامي, كان مشغولا باستقبال المعزين وتبادل الحديث معهم

وسرد ظروف مقتلي عليهم للمرة المليون, كان يتمنى أن ينتهي العزاء بسرعة لأنه ضاق من فضولهم وأسئلتهم السخيفة التي لا يملك لها إجابة عن سبب مقتلي وهوية من قتلني.

رغم أن أغلب المعزين كانوا من أقارب أبي وأمي الذين لم أقابلهم إلا نادرًا , إلا أنهم أخذوا يذرفون علي الدموع بغزارة كأنني كنت أغلى شخص لديهم في الحياة , إنني اعلم أنهم لا يبكون على فراقي بل يبكون موتاهم في شخصي, و بعضهم يبكون لأن وفاتي المبكرة أيقظتهم من غفلتهم, وأكدت لهم الحقيقة المفجعة التي يجاهدون يوميًا لنسيانها, إنهم زوار في الدنيا ولكنهم لا يعلمون موعد انتهاء الزيارة.

الملابس السوداء والرؤوس المنكسة وصوت القرآن وفناجين القهوة ذكروني بمشهد وفاة أبي الذي عشت أحداثه قبل عيد ميلادي السادس بشهور قليلة وقبل موعد أجازة أبي السنوية بشهر واحد.

استيقظت في الصباح على صوت نحيب أمي, الدموع المنهمرة من عينيها أفزعتني وأشعرتني أن هناك كارثة كبيرة وقعت لها, ركضت نحوها لأسألها عن سر بكائها , احتوتني في حضنها ولم تقل شيئًا لأنها لم تعرف كيف يمكن أن تشرح لطفل صغير أن والده الحبيب لقى حتفه في حادث سيارة.

رأيت الناس ينظرون لي بشفقة وحزن , سمعت اسم أبي يُذكر كثيرا مرفقا بكلمة الله يرحمه فعرفت أن هذه الكارثة لها علاقة بأبي, عندما حان موعد أجازة أبي السنوية ولم يأت سألت أمي عن سبب عدم قدومه من السفر حتى الآن.

اكتسى وجهها بالحزن وقالت لي:

-لأنه سافر إلى السماء ومن يسافر للسماء لا يستطيع أن يعود للأرض مجددًا.
-وكيف سافر إلى السماء ولم يقع ؟
-لأنه ترك جسده هنا في الأرض وسافر بروحه فقط.
كنت أسمع كلمة روح لأول مرة فسألت أمي:
- ما معني الروح ؟
بدت عليها الحيرة ثم قالت لي :
- أنت أصغر من أن تفهم معني الروح, الكبار أنفسهم لا يعلمون الكثير عنها لأنها من الأشياء التي أخفاها الله عن الناس, لكن أهم شيء يجب أن تعرفه هو أن الروح تشعر بأحبابها وأنا متأكدة أن روح أبيك تشعر بك و تحرسك وترعاك.
كلام أمي منحني الطمأنينة أن أبي لم يفنً, إنه مازال موجودًا وإن لم يكن موجودًا على الأرض, إنه يشعر بي ويراني وإن كنت لا أستطيع أن أراه وأتحدث معه.
كنت في طفولتي استمتع بالتطلع إلى السماء طوال الوقت في انتظار ظهوره, وعندما أرى خطًا أبيض طويلاً مرسوماً على سطح السماء كان قلبي ينتشي فرحًا و أتصور أن أبي هو الذي رسم هذا الخط لكي يطمئنني على وجوده, وعندما ألمح نجمة صغيرة متلألئة في عتمة الليل كنت أمعن النظر إليها فأرى ابتسامته في بريقها .
قال لي أبي بعد أن تلاقت أرواحنا:

-لقد كنت أرسل تلك الإشارات إليك بالفعل ولقد فرحت كثيرًا باستقبالك لها ولكني حزنت عندما توقفت عن النظر إلي السماء فلم تعد تلتقط إشاراتي أو تتواصل معي.

شرحت له السبب :

-لقد فعلت ذلك بعد أن كبرت وعرفت معلومات مخيفة من مدرس الدين عن عذاب القبر وسكرة الموت والثعبان الأقرع, فتملكني الخوف عليك واعتقدت أنك تصرخ و تتلوى في القبر وتعاني من ذلك العذاب المهين الذي تحدث عنه, تصورت أن كل الإشارات التي رأيتها في السماء مجرد خيالات ساذجة غزلها عقلي المشتاق إليك .

و بعد أن رأيت الموت يحصد أرواح أباء أصدقائي وجيراني, صرت أراه مجرمًا يسرق الناس من أحضان أحبائهم ويأخذهم إلى مكان مجهول مخيف, كنت أكرهه وأخاف منه وأهرب من كل شيء يتعلق به أو يؤدي إليه سواء مستشفيات أو ملابس سوداء أو مقابر أو سرادق عزاء. اعتقدت أن إنكاري للموت و هروبي منه سيقلل من خوفي من ملاقاته أو سيؤخر من مجيئه ولكني اكتشفت بعد رحيلي أن الموت هو أخر شيء يجب أن يخافه الإنسان.

7 –

جلست أمي في مكتب وكيل النيابة وأمسكت بتقرير الطب الشرعي, أخذت تقرأه ببطء, هزت رأسها في حيرة ثم سألت وكيل النيابة عن معنى التقرير ليس لأنها لم تفهم ما قرأته ولكن لأنها لم تشأ أن تصدق أن ما فهمته هو الحقيقة.

شرح لها وكيل النيابة أن التقرير أظهر أنني توفيت نتيجة اصطدامي بالأرض بعد أن قفزت من ارتفاع شاهق على الأرجح شرفة المنزل, لذلك فقد قررت النيابة حفظ التحقيق في القضية بعد التأكد من عدم وجود أي شبهة جنائية في وفاتي.

تضرج وجه أمي غضبا ثم ردت عليه بحدة:

-حضرتك عايز تقول إن ابني انتحر ؟ طب إزاي ؟ إن كان كل الناس شهدوا إنهم شافوا واحد بيضربه في الشارع .

رد عليها وكيل النيابة بهدوء:

-روايات الشهود كانت مناقضة لبعضها, في ناس قالوا انهم شافوه بيتضرب لكنهم مش عارفين مين اللي ضربه بالضبط .

هزت رأسها بالنفي:

- التقرير ده في حاجة غلط , أنا متأكدة إن ابني مش ممكن ينتحر.

ابتسم لها وكيل النيابة ببرود وغمغم :

- والله يا مدام سوسن , الطبيب الشرعي ملوش أي مصلحة في كتابة شيء غير الحقيقة.

***

خرجت أمي من مكتب وكيل النيابة وهي تشعر بضيق في التنفس, وضعت يديها على صدرها وأخذت تشهق وتزفر بصعوبة, اقترب مراد منها و ربت على كتفيها بحنو متسائلا " إيه نتيجة التقرير ؟" , أبعدت أصابعه عن كتفيها كأنها حشرة قميئة, نظرت له باستياء ودمدمت "ملكش دعوة " ثم ركبت معه السيارة في صمت.

اختلس مراد نظرات سريعة إلى أمي, رأى عينيها ترسل شعاعا حادًا من الكراهية باتجاهه, ركز بصره على الطريق حتى يهرب من نظراتها, ولكنه لم يستطع الهروب من التفكير في قسوتها المفرطة في التعامل معه.

هل من المعقول أن هذه السيدة التي تجلس بجواره هي زوجته سوسن أم أن زوجته ماتت في اللحظة التي عرفت فيها بوفاتي وتركت له مخلوقة تشبه الزومبي لا هي حية ولا هي ميتة ؟.

إنه لم يعترض على حزنها فهو حزين مثلها رغم أن حزنه لا يمكن أن يقترب من درجة حزنها, و لم يعترض على لومها وتأنيبها له لأنه منعها من إعطائي النقود التي طلبتها, ولم يعترض على هجرها لحجرة نومهما وانتقالها للإقامة في غرفتي, ولكنه انزعج عندما وجد لومها له يتحول إلى كراهية غير مبررة رغم انه يفعل كل ما في وسع لكي يقف بجوارها و يحاول مواساتها والتخفيف عنها.

أوقف مراد السيارة واستجمع كل ما لديه من شجاعة ثم باح لها بما في قلبه بكل صراحة . أخبرها أنه مستعد أن يتأسف لها مئة مرة في اليوم إذا كان الأسف بإمكانه أن يعيدني للحياة أو يعيد عقارب الساعة إلى الوراء أو إذا كان الأسف بإمكانه أن يطهر قلبها من الحزن والألم , لكن كلمة " آسف "ليست دواءً لمعالجة الجروح وإزالة الآلام وليست آلة قادرة على إعادة الزمن للوراء أو لا إلغاء الأخطاء, إنها مجرد كلمة صغيرة مكونة من ثلاثة حروف فقدت تأثيرها على النفوس من فرط ما يلفظها الناس .

أقسم لها أنه لم يكرهني ولم يتمنَ موتي قط بل بالعكس كان يحبني وكان يعتبرني ابنه الذي لم ينجبه, والدليل على ذلك أنه وافق على الإنفاق علي بصدر رحب بعد أن نفدت نقود أبي رغم اعتراضه على إسرافي الشديد.

انه ليس الشخص الذي يستحق كراهيتها لأنه لم يقتلني ولم يقف ليشاهدني أصارع الموت بدون أن يفعل شيئا ولم يترك القاتل يفر هاربا, الشخص الذي يستحق كراهيتها ما زال حرا طليقا وربما لن تعرف مكانه أبدًا .

أخفضت أمي رأسها وأنصتت إلى اعترافات مراد في صمت, كانت تود أن تعارضه وتجادله وتتشاجر معه ولكنها لم تجرؤ على رفع بصرها إليه لأنها كانت تعلم أنه على حق.

***

صدقت أن مرادًا يحبني فعًلا عندما رأيته عاجزًا عن النوم وعن الأكل و عن الذهاب لعيادته منذ وفاتي, قلبه كان مثقلاً بالحزن والندم والذنب, ظن أنه لو كان أقل صرامة وأكثر رفقًا ولطفًا معي لصارت علاقته بي قائمة على

الحب والاحترام, ولكن الحقيقة أن علاقتي بمراد محكوم عليها بالفشل منذ البداية.

ما زلت أتذكر شكله عندما دخل منزلنا لأول مرة, كم ضحكت على لون قميصه البصلي , والدببة البيضاء الصغيرة المرسومة على ربطة عنقه, زاد من ضحكي العرق الذي كان يبرق فوق صلعته العريضة ونظارته الطبية السميكة التي كان يعدل من وضعها على وجهه كل دقيقة, ظننت أنه من أقارب أمي لأن جدتي كانت تتحدث معه بدون تكليف ولأن أمي كانت تتبادل معه الابتسامات طوال الوقت, ولكني بدأت أرتاب في أمره عندما كرر زيارته وأحضر لي قردًا صغيرًا يعمل بالبطارية, ألقيت القرد في وجهه وأنا أشير له وأقول " أهو إنت القرد " ثم جريت بعيدا عنه وسط ضحكات أمي وجدتي.

سألت أمي عن هويته وعن سبب زياراته المتكررة, أخبرتني أن اسمه الدكتور مراد وأنه يعمل طبيب أسنان وأنه يزورنا لأنه سيقيم معنا قريبًا.

سألتها ببراءة:

-وليه يقعد معانا هو مش عنده بيت يقعد فيه ؟

أطلقت ضحكات متوترة وقالت :

-أصل بيتنا أجمل من بيته.

لم تقنعني إجابتها فلماذا يختار هذا الرجل الغريب منزلنا بالتحديد حتى يقيم فيه ؟, ولماذا تدعوه أمي كل يوم لتناول الغداء والعشاء وتعامله بكل رقة ولطف ؟.

أدركت متأخرًا السبب الحقيقي لزياراته المتوالية عندما جاء يوم زفافه على أمي.

تركتني أمي عند جدتي في ذلك اليوم ثم اصطحبتني جدتي ليلا إلى قاعة الزفاف.رأيت أمي ترتدي فستانًا أبيض طويل نصف كم مُرصع بالترتر و الخرز, و تجلس بجوار مراد الذي كان يرتدي بذلة سوداء فاخرة, وتحيط بهما باقات الورود والزينات, استولت علي الصدمة عندما رأيته يحوطها بذارعيه ,جريت ناحيته صارخا" شيل إيدك من على ماما", امتقع وجهه ووجه أمي بينما انصبت نظرات كل المدعوين علي, اقتربت مني جدتي وأخبرتني بهدوء أن مرادًا من حقه أن يضع يده على أمي لأنه صار زوجها, ثم أخبرتني أنني سأقيم معها في المنزل لمدة أسبوع لأن أمي ستسافر مع مراد في رحلة قصيرة.

شعرت في تلك اللحظة أنني تعرضت لخيانة كبرى من أمي. لقد كنت صغيرها المدلل و الأمير المتوج على عرش قلبها,ولكنها طردتني من قصري بدون أسباب ومنحت مفتاح القصر لمراد حتى يحتله ويصبح الأمير بدلاً مني.

تأكدت من صحة شعوري عندما عدت للشقة بعد أسبوع ,وجدت مفروشات المنزل القديمة البسيطة اختفت وحلت محلها تحف ثمينة وسجاجيد فاخرة ومصابيح ذهبية أنيقة , داهمني الألم عندما رأيت صورة زفاف أمي ومراد تحل محل صورة زفافها على أبي . نظرت إلى أمي فلم أتعرف عليها, لقد تحولت إلى عروس ترتدي ملابس زاهية وتغطي وجنتيها بالبودرة وعينيها بالألوان المشعة . إنها لم تخني فقط بل خانت ذكرى أبي الحبيب بعد عام واحد من رحيله وكل ذلك من أجل هذا الرجل الدميم .

سألتها " ليه عملتي كده ؟", فشرحت لي أنها تزوجت مرادًا لأنها أرادت أن يكون لي أبًا يرعاني. أخبرتني أنه سعي طوال حياته حتى ينجب طفلا جميلا مثلي ولكن الله حرمه من نعمة الإنجاب, لذلك قرر أن يتزوجها حتى يربيني ويكون أبي بدلا من أن أظل يتيًما.

اعترضت على كلامها :

-أنا مش يتيم طول ما انتي عايشة, انتي أمي وأبويا .

- أنا مش هقدر أكون أمك وأبوك في نفس الوقت , انت مش فاهم حاجة دلوقتي بس لما تكبر هتفهم, أرجوك ادي لعمك مراد فرصة وصدقني مش هتندم.

ظننت أن سبب زواج أمي من مراد مادي لأنه ميسور الحال ولديه عيادة خاصة تدر عليه مبلغا كبيرًا من المال, بعد أن عندما كبرت أدركت الحقيقة التي خجلت أمي من إيصالها لي, لقد تزوجت مجددًا لأنها مثل أي أمرآة طبيعية تحتاج إلى رجل في حياتها. ولكني لم أكن أراها أمرآة عادية , كنت أراها كائنا ملائكيا خُلق فقط لكي يمنحني الحب والحنان, كنت أريدها أن تعتزل الرجال بعد وفاة أبي وتصير راهبة لا هدف لها في الحياة سوى خدمتي و رعايتي.

سألت أبي بعد أن تلاقت أرواحنا :

-هل تألمت عندما رأيت رجلا غريًبا يعيش في منزلك ويحل محلك في قلب أمي ؟ .

أدهشني رده:

- أبدًا, بالعكس لقد كنت حزينًا على أمك بعد وفاتي , صحيح أنني تركت لكما مبلغ لا بأس به من المال ولكن المال ليس كل شيء, لقد كانت أمك وقت وفاتي شابة في أواخر العشرينات وجمالها يفوق جمال نجمات السينما , فكيف كانت ستقضي بقية عمرها وحيدة بلا رفيق يشاركها الحياة ويخفف عليها أعبائها؟ أمك كانت ستتزوج عاجلاً أو أجلاً ولقد كنت سعيدا أنها وجدت شخصا طيِّبا مثل مراد يحبها ويخاف عليها كما أنه كان مستعدًا أن يصبح أبيك.

-ولكني لم أكن أريده أن يكون أبي, الأبوة ليست لقبا للتفخيم والتعظيم و الآباء لا يمكن استبدالهم, الأبوة دور لا يمكن أن يقوم به إلا رجل رآك وأنت رضيع قبل أن تتفتح عيناك على الحياة ولا يمكن لأي رجل غريب أن يقفز بالباراشوت على منزلك فجأة ,ويأمرك بأن تناديه بكلمة بابا.

مراد لم يفهم ذلك وظن أنني سأتقبله وسأعتاد على وجوده في المنزل بعد أن يغرقني بالهدايا والابتسامات والأحضان, ولكني كنت أرمي هداياه على الأرض وأعبس في وجهه وأهرب من أحضانه, وأعلن بكل صراحة عن كراهيتي له و رفضي أن يكون والدي, كنت أراه محتلاً لبيتي ولقلب أمي وأنا لا أقبل الاستسلام للمحتل.

نفوري من مراد لم يردعه عن تكرار المحاولة بشكل مختلف.

اقترب مني في أحد الأيام وعلى وجهه علامات الجدية وقال لي بلهجة صارمة :

" أنا بقيت في مقام والدك ولازم تسمع كلامي " .

بدأ يأمرني بالتوقف عن مشاهدة التليفزيون واللعب بدراجتي حتى أتركه يشرح لي الدروس ويساعدني في حل الواجبات, كنت أجلس بجواره وأتظاهر بالغباء حتى يعيد شرح الدرس عدة مرات, كنت أتعمد أن أخطئ في حل واجباتي حتى أستفزه, وعندما يثور ويبدأ في توبيخي أجري نحو أمي باكًيا وأمثل دور اليتيم المسكين الذي يتعرض لسوء المعاملة من زوج أمه القاسي.

أدركت أن مقاومتي أجدت نفعا عندما سمعت أمي تلومه على فظاظته في معاملتي, رد عليها بنفاد صبر :" مفيش فايدة في الولد ده , أنا مش قادر عليه "

فردت عليه بحنق :" خلاص ملكش دعوة بيه تاني " .

رقصت احتفالا بانتصاري في أولى معاركي مع مراد, كنت أعتقد أنني سأتمكن من طرده من مملكتي نهائيا بكل سهولة لأنني لم أعرف أن هناك معجزة على وشك الحدوث

ستغير حياته وحياتي و ستربطني به إلى الأبد .

-8

دخلت أمي الشقة ثم توجهت مباشرة إلى شرفة منزلنا الذي يقع في الدور السابع, تطلعت إلى الشارع, بدت أحجام الناس والسيارات والأشياء أمامها أصغر من المعتاد, ألقت ببصرها على سور الشرفة العالي, أخذت تتحسسه بيديها, حاولت أن تتخيل أنني صعدت فوق السور ثم تركت جسدي فريسة للجاذبية, اتسعت حدقتا عيناها وتسارعت أنفاسها, أحست أن رأسها تدور بسرعة عنيفة, وبلا وعي تدلت بجسدها فوق السور حتى صار نصفها الأعلى معلقًا في الهواء, كادت أن تُلبي نداء الجاذبية لولا أن رامي هرع نحوها وسحبها للوراء " ماما , حاسبي " , صوته أعاد لها وعيها, وجدها مضطربة فساعدها حتى جلست على أحد مقاعد الصالة.

سألها عن نتيجة التقرير, ردت عليه بصوت مبحوح:

-بيقولوا انتحر

-بتقولي إيه ؟

- بقولك انتحر, التقرير بيقول إنه رمى نفسه من البلكونة.

نظر رامي إلى الشرفة في ذهول ثم تطلع إلى أمي متسائلا:

- باسل رمى نفسه من البلكونة ؟

أومأت مؤكدة على كلامها السابق, هز رامي رأسه نفيًا بكل ثقة :" لا, مستحيل إنه يعمل كده طبعا ". رفض رامي الاقتناع أنني قررت مغادرة

الحياة بإرادتي فجأة لأن تصرفاتي لم تكن تصرفات شخص يريد التخلص من حياته , فإذا كنت قررت الانتحار فلماذا أرسلت الكمبيوتر للتصليح ؟ ولماذا ذهبت إلى محل البلاي ستشين ؟, وإذا كنت انتحرت بالفعل فلماذا لم يشاهدني ولو شخص واحد وأنا أقفز من الشرفة ؟.

طرح رامي تلك التساؤلات على أمي, فابتسمت له واحتضنته :

- صح , يا ريتك كنت معايا علشان تقول الكلام ده لوكيل النيابة.

-طب هتعملي إيه علشان تثبتي إن تقرير الطب الشرعي غلط ؟

سؤاله الصعب أجبرها على أن تطرح على نفسها سؤالا أصعب " ما مصلحة الطب الشرعي في إصدار تقرير كاذب؟ ,الظاهر للعيان أنه لا يوجد مصلحة, ولكن الإجابة الحقيقية لا يمكن أن تعرفها لأن هناك ضبابًا كثيفًا من الغموض يغطي الحادث الذي وقع لي, والحقيقة مدفونة في مكان مجهول تحت هذا الضباب في انتظار أن تبحث عنها وتعثر عليها, وهي لا تعرف أين ولا كيف تبدأ البحث.

انزعج رامي عندما وجدها غارقة في الصمت ,خاف أن يكون صمتها دليل على استسلامها ورضاها بما كُتب في التقرير فقال لها بانفعال:

-ماما لازم نعمل حاجة, مش ممكن نسكت, مش ممكن نسيب حق باسل يضيع.

دوت كلماته في أذنيها فارتجفت وهي تفكر في مدى صعوبة الموقف الذي وُضعت فيه, إنه موقف لا يلائم شخصيتها المسالمة الهادئة التي تكره الصراع, إنها دائما تفضل أن تشتري راحة بالها بأي ثمن, وإذا تعرضت للسرقة أو حاول أحد أن يتشاجر معها أو يتعدى على حقوقها تصمت وتتسامح وتتنازل مقابل ألا تدخل القسم أو تصبح طرفًا في نزاع , المشكلة أن الحق

الذي ستتنازل عنه هذه المرة ليس حقها, إنه حقي, حق ابنها الذي قُتل وألصقت به تهمة الانتحار؟ إذن لابد أن ترفع قضية, ولكن القضية ستكون ضد من ؟ ضد مصلحة الطب الشرعي أم ضد وزارة العدل ؟ وهل تتوقع أن تكسبها ؟ ,هل بإمكان أي مواطن أن يدخل في معركة ضد السلطة ويخرج منها منتصرا ؟ .

استولى عليها ذعر شديد , أحست أنها تقف بمفردها ضد كائن أسطوري ضخم, مرعب بإمكانه أن يسحقها بكل سهولة إذا فكرت في الاقتراب منه, أمسكت بالسلسلة الذهبية التي تحيط بعنقها والتي تحتوي على آية الكرسي وبكت ثم تضرعت إلى الله حتى يرشدها ويلهمها الصواب.

دخلت حجرة نومي حتى تنال قسطًا من الراحة, قبل أن تتمدد فوق الفراش سمعت رنين الهاتف, رفعت السماعة فوجدت على الطرف الأخر رجلاً يلقي عليها التحية بصوت هادئ ويعرفها على نفسه :

- أنا رائف عبد العزيز المحامي و مدير مركز السراج لحقوق الإنسان, أنا بأقدم لحضرتك التعزية في وفاة ابنك وعايز أقولك إني مش عارف أنام من يوم ما شفت صورته,أنا اتصدمت لما قريت النهاردة تقرير الطب الشرعي اللي بيخالف كلام أغلب شهود العيان وبيخالف صورته بعد الوفاة, أنا متأكد إن تقرير الطب الشرعي ده متلفق

اندهشت أمي من كم المعلومات التي يعرفها هذا الرجل عن قضيتي فسألته بارتياب:

-حضرتك جبت نمرة تليفوني منين ؟

رد عليها متلعثما:

-أخذت الرقم من واحد من أصدقاء باسل أنا اعرفه .
-طب شوفت صورة ابني فين وازاي عرفت نتائج التحقيق بالسرعة دي ؟
-على الانترنت, قضية ابنك بدأت تعمل ضجة بعد لما اتضح أنه كان من المعارضين.
- معارضين؟ معقول ؟ ابني أنا كان معارض؟ .
-ايوه, أنا قريت على موقع صحيفة الأيام إن باسل شارك في مظاهرات ضد النظام وكان عضو في حركة احتجاجية, لو حضرتك وكلتيني هقدم طلب بإعادة فحص تقرير الطب الشرعي وإعادة فتح التحقيق في وفاة باسل وهساعدك في كشف الحقيقة, واطمني أتعابي مش هتكون كبيرة.
شعرت أمي بالارتياح لهذا الرجل وأحست بالصدق في كلامه , تبادلت معه رقم الهاتف المحمول ووعدته أن تتصل به في أقرب فرصة حتى تتفق معه على إجراءات التقاضي.
بعد أن أنهت المكالمة هرعت إلى حجرة رامي وطلبت منه أن يفتح حاسبه ويدخل على موقع جريدة الأيام, دخل رامي على الموقع وأخذ يبحث بين الأخبار حتى عثر على صورة لي بالحجم المتوسط تحتل منتصف الصفحة.
اتسعت عيون رامي وأمي من الذهول عندما شاهدا تلك الصورة التي كنت أقف فيها بجوار مجموعة كبيرة من الشباب يحملون لافتات ورقية مكتوب عليها بالخط الأسود العريض " أفرجوا عن هشام السباعي ".
كان العنوان المنشور فوق الصورة يقول " هل أدت مشاركة باسل هاشم في المظاهرات المؤيدة لهشام السباعي إلى مقتله ؟".

تفاصيل الخبر كشفت أنني كنت ناشطاً سياسياً وأنني كنت أنتمي لحركة " لا لتكميم الأفواه " الاحتجاجية, وأنني شاركت في مظاهرة وقعت العام الماضي للمطالبة بالإفراج عن عضو مجلس الشعب المستقل هشام السباعي و الذي تم القبض عليه بتهمة الاعتداء على ضابط شرطة, ولكن اتضح أن الضابط لفق له تلك التهمة بسبب معارضته الشرسة للنظام وشعبيته الجارفة بين الناس.

هز رامي وأمي رأسيهما في عدم تصديق, حملقا في تفاصيل وجهي الظاهرة في الصورة عدة مرات, نظرتي التائهة التي وشت بعدم انسجامي في هذا المكان أثارت ارتيابهما. هل من المعقول أن باسل الذي يعرف بالكاد اسم رئيس الجمهورية والذي كان يخشى المرور أمام قسم الشرطة معارضا سياسيا و عضوا في حركة احتجاجية ؟

قررا أن يبحثا عن الحقيقة في متعلقاتي, فتح رامي حاسوبي وأخذ يبحث في ملفاتي , وجد موسيقى "هيب هوب " و " هاوس " ,أفلام رعب وأكشن أجنبية, وألعاب الكترونية متنوعة, فتح أخر صفحات الانترنت التي دخلت عليها فوجدها فارغة .

أمسكت أمي بهاتفي المحمول وأخذت تفتش في سجل مكالماتي, لم تجد سوء أسماء أصدقائي الذين تعرفهم جيدا, أخذت تفتش كتبي وكراساتي وأوراقي, لم تجد سوى كتب الدراسة, و المجلات القديمة, و الكراسات الفارغة, سيطرت الحيرة عليها وعلى رامي , هل من المعقول أنني تعمدت إخفاء كل الأدلة التي تشير إلى نشاطي السياسي ؟, أم أنني كما يعتقدان ليس لي علاقة بالسياسة و وجودي في تلك المظاهرة جاء بالمصادفة ؟

رنين جرس الشقة انتزعهما من أفكارهما الصاخبة. قام رامي ليفتح الباب فوجد أمامه شاباً نحيفاً يحمل على كتفه حقيبة سوداء, ألقي عليه الشاب التحية وسأله " هو ده بيت المرحوم باسل هاشم؟".

رد عليه رامي بالإيجاب فقدم له الشاب التعزية, وأخبره أنه يعمل معدًا في قناة المصريين الفضائية, و أنه يريد أن يعد للقاء تليفزيوني مع الأسرة , تصلب رامي في مكانه من المفاجأة و أخذ ينظر إلى الرجل لبضع ثوان بدهشة , وقبل أن يقرر رد فعله على زيارته المفاجئة سمع أمي تقول له " اتفضل ".

***

أضيئت الأنوار و انفتح باب حجرة الصالون, دخلت كاميرات التليفزيون وأعمدة الإضاءة إلى المنزل, جلست أمي على الأريكة بجوار مراد ورامي, وجلست أمامهم الإعلامية الشهيرة " سالي سالم " وهي سيدة شقراء في منتصف العمر, تطلعت " سالي سالم " إلى الكاميرا وأخذت تتحدث عن الجدل الذي أثارته قضيتي بين الناس ثم طلبت من أمي أن تُحدثها عن تفاصيل الحادث.

حدقت أمي في الكاميرا وانطلقت في الحديث بثقة كأنها قضت حياتها كلها تجري حوارات تليفزيونية, سألتها سالي سالم بنبرة حزينة:

-ممكن تكلمينا عن شخصية باسل وعن طبيعة علاقته بيكم في البيت ؟

- باسل كان طيب جدا واجتماعي ومحبوب من كل الناس, وعلاقتي بيه كانت قوية , كان ميقدرش يخرج الصبح من غير ما يبوس إيدي ويطلب مني إني أدعي له ومكانش بيخبي عني أي حاجة, وكانت علاقته بمراد جوزي ممتازة, كان بيقوله يا بابا لأنه هو اللي رباه وكان هو وأخوه رامي روحهم في بعض .

أومأ رامي برأسه مؤيدا لكلام أمي بينما ظل مراد صامتا واجما خائفا من أن تطرح عليه المذيعة أي سؤال, لقد عارض الجلوس في هذه المقابلة لأنه ليس متكلما بارعا أو كاذبا محترفا, ولكن أمي أصرت على وجوده لإضفاء المظهر المثالي على الأسرة .

طرحت سالي سالم على أمي السؤال الذي كان تخشاه :

- طيب ممكن نعرف هو كان باسل بيشتغل إيه ؟

سارعت أمي بترديد الإجابة التي حضرتها في ذهنها :

-هو خريج كلية الحقوق وكان بيشتغل في الشئون القانونية في شركة تأمين

-طيب, هل باسل فعلا كان معارض للنظام وهل كان عضو في أي حزب أو حركة احتجاجية ؟

جفلت أمي وانعقد لسانها , رفعت رأسها وتطلعت إلى صورتي المعلقة على الحائط المواجه للصالون , تمنت أن أخرج من الصورة ولو للحظات حتى أرد على هذا السؤال وعلى باقي الأسئلة التي تكاد تفتك بعقلها.

أرادت أن تخبر المذيعة أنها لا تعرف شيئًا عن انتمائي لهذه الحركة ولكنها خافت من الانطباع الذي سيتركه هذا الرد في عقول المشاهدين, قررت أن تعطيها إجابة مبهمة لا تنفي شيئًا ولا تؤكد شيئًا " كل اللي اقدر أقوله إن باسل كان بيحب مصر قوي وكان نفسه تبقى أحسن بلد في الدنيا و لكنه في الأخر دفع ثمن حبه لبلده"

***

تصدر اللقاء الذي أجرته قناة المصريين مع أسرتي عناوين الأخبار في الصحف وصفحات المواقع الالكترونية و شبكات التواصل الاجتماعي فأثار

مزيجًا من الجدل والحزن في قلوب الناس. انهالت المكالمات التليفونية والزيارات على منزلي من رجال ونساء وشباب قاموا بتعزية أسرتي وأبدوا حزنهم على رحيلي كأنني كنت ابنهم أو صديقهم أو أخيهم, انهالت على أمي الدعوات من القنوات الفضائية والصحف الكبرى لكي تقوم بإجراء لقاءات حصرية معهم .

رغم شعورها بالامتنان لوقوف الناس معها ومساندتهم لها إلا أن الأضواء الكثيفة التي سُلطت عليها فجأة أصابتها بالخوف والقلق. خافت من فضول الإعلاميين لمعرفة أدق تفاصيل حياتي , خافت أن تفشل في الإجابة على الأسئلة الشائكة التي ستُطرح عليها عني , ولكنها قررت أن تتجاوز مخاوفها في سبيل أن يعرف كل الناس بالجريمة الشنيعة التي وقعت لي, تحلت بالشجاعة وحضرت في ذهنها إجابة مثالية على كل سؤال, فنجحت في الاستحواذ على قلوب الناس وكسب المزيد من المتعاطفين معها ومعي بفضل قدرتها على الجمع بين اللباقة والعفوية في الحديث.

***

بعد وفاتي بأيام قليلة دق جرس الشقة, فتح رامي الباب ليجد ثلاثة شباب متفاوتين في الطول والحجم يقفون أمامه, سأله أحدهم " هو ده بيت الشهيد باسل هاشم ؟" ,

جفل واقشعر بدنه, " شهيد ؟ " , منذ أن توفيت وهو يسمع الناس ينعتوني بالمرحوم ولكن هذه أول مرة يسمع فيها أحدا ينعتني بالشهيد, خمن أن هؤلاء الشباب من المتعاطفين مع قضيتي,

ابتسم لهم مرحبا :" أيوه اتفضلوا انتم جايين تعزونا مش كده ؟"

أومأوا برؤوسهم في خجل , أرشدهم إلى حجرة الصالون ,ثم دخل لينادي أمي, دخلت أمي عليهم بصحبة مراد, مدت يدها اليمنى لتصافحهم, فوجئت بهم ينحنون أمامها و يتنافسون في تقبيل يديها, أفلتتها بسرعة وقالت لهم وهي تبتسم في حرج :

" استغفر الله العظيم, مش للدرجة دي " .

رد عليها أحدهم بحرارة:

- لا حضرتك تستاهلي اكتر من كده لأنك بطلة , حضرتك مش عارفة احنا زعلانين على باسل قد إيه" .

- لا , عارفة , لولا الشباب اللي زيكم مش عارفة كنت هتحمل اللي أنا فيه ده إزاي ؟"

أشارت لهم بالجلوس فجلسوا بجوار بعضهم على الأريكة المواجهة لها.

عرفوها على أنفسهم قائلين أنهم طلبة في الجامعة, أخبروها أنهم يتابعون قضيتي باهتمام , وأنهم عبروا عن غضبهم من الطريقة البشعة التي انتهت بها حياتي في مدوناتهم وصفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي لكنهم يعتقدون أن هذا لا يكفي لأن قضيتي أهم وأخطر من أن تُحبس في فضاء الانترنت الضيق, لذلك قرروا أن يطلقوا غضبهم في الشارع لعلهم يستطيعون إيصال أصواتهم لكل الناس.

أخبروها أنهم يريدون إقامة مظاهرة أمام دار القضاء العالي يوم الجمعة القادم للاعتراض على تقرير الطب الشرعي ولمطالبة النائب العام بإعادة فتح التحقيق في القضية, رفعت أمي حاجبيها في دهشة بينما بدت علامات الاعتراض على وجه مراد , كان مراد يشارك الشباب في غضبهم من نتائج

التحقيق وكان على يقين أنني قُتلت ولم انتحر لكنه أيضا كان مثل ملايين المواطنين يرتعد رعبًا عندما تُذكر أمامه كلمة مظاهرة, لذلك هم بالاعتراض على اقتراحهم:

-المظاهرة لازمتها إيه ؟, إحنا هنوكل محامي وهو هيقدم طلب بإعادة فتح التحقيق وإن شاء الله النائب العام هيوافق

رد عليه أحد الشباب:

-لا مش هيوافق, النيابة مقتنعة بتقرير الطب الشرعي ومش ممكن هيغيروا موقفهم إلا تحت تأثير الضغط الشعبي.

- بالعكس الضغط ده ممكن يخليهم يعندوا اكتر ويصروا إنهم ميفتحوش التحقيق

قاطعت أمي مراد كأنه طفل خرج عن حدود الأدب :

"اسكت انت", انتم عندكم حق يا شباب, فكرتكم هايلة وأنا هكون أول واحدة معاكم في المظاهرة "

احمر وجه مراد غضبا لكنه استطاع أن يكتم غضبه و انتظر حتى غادر الشباب المنزل ثم ثار على أمي:

-ازاي تزعقيلي قدام شوية عيال؟ , وبعدين انتي اتجننتي علشان تشتركي في مظاهرة , انتي مش عارفة اللي بيشترك في مظاهرات بيحصله إيه؟ .

- لا, عارفة بس انت احرجت الشباب دول بكلامك, وهما كتر خيرهم بيحاولوا يعملوا أي حاجة علشان خاطر باسل.

كانت أمي تعلم أن اعتراض مراد على المظاهرة منبعه الخوف ,كانت مثله تخاف من المظاهرات وتدرك خطورتها, لكنها لم تستطع أن تخذل هؤلاء

الشباب, لم تستطع أن تبدو أقل شجاعة منهم, فالحماس الصادق الذي لمسته في كلامهم بث في قلبها الأمل وجعلها تشعر أنها ليست وحيدة في حزنها وليست وحيدة في غضبها وأنها ليست ضعيفة , إنها قوية وقادرة على اكتشاف حقيقة ما حدث لي وقادرة على استرجاع حقي طالما أن هؤلاء الشباب يقفون بجوارها و يساندوها.

لم يقتنع مراد بأسبابها, أخذ يواصل محاولاته لإقناعها بالعدول عن المشاركة في المظاهرة:

- المظاهرة دي هتبقى زي قلتها لأن مفيش ناس كتير هينزلوا فيها , الناس ممكن يساندوكي بالكلام والتليفونات والزيارات لكنهم أجبن من إنهم ينزلوا مظاهرة ويعرضوا نفسهم للبهدلة والضرب من البوليس علشان خاطرك .

بدا الانزعاج على أمي فردت على مراد بحدة :

-الناس مش خايفين , والدليل هو إنهم نظموا المظاهرة دي وعلشان كده أنا هنزل معاهم وهدافع عن حق ابني وأنا متأكدة إن فيه ناس كتير هينزلوا معايا ومش هيتخلوا عني .

-9

كانت أمي على وشك الذهاب إلى المظاهرة عندما سمعت رنين جرس الشقة, ظننت أن الطارق غريب آخر جاء لتعزيتها فطلبت من رامي أن يستقبله بالنيابة عنها, ذهب رامي ليفتح الباب ففوجئ بعنتر يقف أمامه ليخبره أن هناك خطابا جاء باسمه.

اكتشف أن الخطاب مُرسل من جامعة القاهرة, خفق قلبه سريعًا و هتف في سره "التنسيق ", لقد نسى أنه نجح بمجموع 99 في المائة في الثانوية العامة, ونسى أنه كان ينتظر نتيجة التنسيق على نيران اللهفة والخوف, لقد نسى نفسه وحياته وموقعه من العالم بعد وفاتي. تنفس بعمق قبل أن يقرأ محتوى الخطاب, تهللت أساريره بعد أن قرأ   اسم " كلية طب الفم و الأسنان".

اقتربت أمي منه وسألته " مين اللي خبط ؟". أعطاها ورقة القبول في صمت, قرأتها سريعا ثم تراءى على وجهها شبح ابتسامة , قالت له " ألف مبروك " بنبرة فاترة.

أخذ يراقبها وهي تعدل وضع غطاء رأسها الأسود في المرآة, كان ينتظر منها أن تكرر له التهنئة أو تعيد التعبير عن فرحتها بأي شكل, ولكن العبوس الذي صار محفورا على وجهها أكد له أنها نسيت الخبر بسرعة لأن عقلها صار عاجزًا عن هضم   الأخبار السعيدة. عاد ينظر لورقة القبول بحزن.

لقد قضى أخر عامين من حياته محبوسا في حجرته وحرم نفسه من النوم والترفية   حتى يصل إلى لحظة الاستمتاع بالوقوف على القمة وتحقيق حلمه,

ولقد جاءت تلك اللحظة المميزة أخيرا إلى باب بيته لكنه لم يحسن استقبالها, كان عقله يدرك أنه من المفروض أن يفرح لكن قلبه كان عاجزا عن الشعور بالسعادة, كان يشعر أن الفرحة خيانة عظمى في هذه الظروف. كاد أن يعيد ورقة القبول إلى المظروف لولا أنه فوجئ بعودة والده إلى المنزل, اقترب منه وأعطاه ورقة القبول بدون كلام, تناول مراد الورقة منه , قرأها سريعًا ثم تهلل وجهه. رأى أمي ترسل له نظرة مستنكرة فعاد إلى التجهم ثم اصطحب رامي لحجرة نومه وأغلق الباب. عانقه وقبله على جبهته وأخذ يغدق عليه ما تيسر من عبارات التهنئة والمدح, أمعن النظر إلى وجهه فتوهجت عينيه بالبريق الذي يسطع على ملامحه كلما تذكر أن وجود رامي في حياته معجزة لا يصنعها الله إلا من أجل عباده المخلصين.

***

ظهرت لي أول بشائر معجزة رامي عندما رأيت مراداً يقفز فرحًا كأنه ربح مليون جنية و يركض نحو أمي. احتضنها وقبل وجنتيها وجبهتها ويديها ثم سجد على الأرض, وأخذ يصيح بصوت متباكي " ياما انت كريم يا رب أحمدك وأشكر فضلك ". رمق بطن أمي بدهشة ثم هتف بطريقة هستيرية " أنا مش مصدق ".

اندهشت عندما رأيته يضحك والدموع تتساقط من عينيه, ظننت أنه أصيب بلوثة عقلية , لم أفهم أن الدموع المصاحبة لابتسامته كانت تفريغًا للسعادة المفرطة التي غمرته فجأة. لقد انفصلت عنه زوجته الأولى عندما اكتشفت أنه مصاب بالعقم, وبعد أن وطن نفسه على تقبل حياته بلا ولد يحمل اسمه ويورثه جاء حمل أمي ليجعله يؤمن أن زمن المعجزات لم ينته.

في صباح يوم ميلاد رامي كانت بطن أمي منتفخة على أخرها كأنها ابتلعت عشر ديوك , ظلت تئن ثم تحول أنينها فجأة إلى صراخ متواصل سمعه مراد فأصطحبها إلى المستشفى وأوصلني إلى منزل جدتي. اصطحبتني جدتي إلى المستشفى في المساء, جلست بجوارها في الاستقبال حتى ظهرت أمامنا الممرضة وعلى وجهها ابتسامة عريضة وقالت لجدتي" ألف مبروك بنتك جابت ولد ".

أطلقت جدتي زغرودة عالية و هنأتني لأنني صرت أخًا كبيرًا. دخلت حجرة أمي في المستشفى فوجدتها تجلس على الفراش مبتسمة رغم الإعياء البادي على ملامحها بينما كان مراد يجلس على الكرسي المجاور لها. طلبت مني أن أقترب لكي أرحب بأخي, رأيت أصابع رامي الصغيرة تبرز من البطانية الحمراء التي كانت أمي تحمله بين طياتها. اقتربت منه ببطء, نظرت إلى وجهه, لم يبادلني النظرات, أخذ يجدف بذراعيه وقدميه في الهواء ويبكي بصوت مزعج.

لم أشعر برغبة في مداعبته أو ملاعبته لأنني لم أشعر أنه أخي, لم أجد في ملامحه أي شيء يشبهني أو يشبه أمي, أخذت أجول بعيني بينه وبين مراد, أدركت أن هذا الطفل نسخة مصغرة من ذلك الرجل, لقد ورث عنه الأنف الضخم والجبهة العريضة والذقن المدبب والعينين السوداويين الضيقتين والبشرة الخمرية. لاحظت أمي فتوري في الترحيب به فطلبت مني أن أحمله, قبل أن اقترب منه أشار لي مراد بالابتعاد

" بلاش تشيله لتوقعه ", أخذه من حجر أمي وحمله بحذر شديد كأنه قطعة من الزجاج النفيس.

لم تمض أيام على وصول رامي للحياة حتى صار النجم الأوحد في المنزل وصارت أمي ومراد كوكبين صغيرين يدوران حوله ويستمدان منه النور والحياة.

كانت أمي ترضعه وتهدهده وتلاعبه طوال اليوم, وفي وقت نومه تخرج لكي تشتري له ملابس وألعاب وتحكي للناس أخباره وطرائفه. أما مراد فكان يجلس أمامه ليراقب تجشؤه وهمهمته ومحاولاته الفاشلة في المشي والكلام, و يصور كل فعل وحركة يقوم بها بالكاميرا و يسجل أول كلمات ينطق بها على شرائط الكاسيت كأنها أعمال خارقة لم يأت بها أي طفل في سنه من قبل.

رغم أن أمي ظلت تضع لي الطعام وتغسل ملابسي وتنظف حجرتي وتوقع على أوراق امتحاناتي إلا أنني شعرت أن حضوري في حياتها يساوي غيابي, شعرت أنني تحولت إلى كومبارس يجلس في خلفية الصور التي تلتقطها لرامي. لم تعد تهتم بالحديث معي أو الإشراف على حل واجباتي أو سؤالي عن يومي في المدرسة, و حتى عندما كنت أتأخر في العودة إلى المنزل لم تكن تعاتبني أو حتى تسألني عن سبب تأخري.

خروجي من دائرة اهتمامها جعلني أدرك معني كلمة " يتيم "التي كنت أسمع الناس ينعتوني بها أحيانا في شفقة, بقدر ما أحزنني غيابها وأثار في نفسي الشعور بالوحدة بقدر ما منحني الرخصة لكي أتمرد على كل الأوامر والنواهي التي وضعتها لي وأعيش حياتي كما أريد. ألقيت بكتبي وكراساتي جانبا, أرحت عقلي من الحفظ وحل الواجبات و صرت أهرب من المدرسة لأقضي يومي في لعب مباريات كرة القدم في الشارع, جاءت امتحانات نهاية

العام فوجدت نفسي عاجزا عن إجابة أغلب الأسئلة , عندما ظهرت النتيجة لم أندهش عندما اكتشفت أنني رسبت في أغلب المواد.

رسوبي كان الشيء الوحيد الذي أعادني إلى دائرة اهتمام أمي وجعلها تنتبه أنها أنجبت ابنًا أخر قبل طفلها المعجزة رامي. لن أنسى الصرخة المكتومة التي أطلقتها عندما رأت الأصفار تبرز من شهادتي كالنمش على البشرة البيضاء. لم تتخيل أن هناك طفل يمكن أن يرسب في الصف الرابع الابتدائي, كيف أفشل في التعليم وجدي كان ناظر مدرسة وأبي كان متفوقًا في دراسته وحاصل على ماجستير في المحاسبة, و أمي كانت من العشرة الأوائل على دفعتها في كلية الفنون الجميلة؟.

شعرت بالسعادة وأنا أرى الغضب يلتهم أعصابها بينما كانت تصب علي عبارات التأنيب والتوبيخ, ازدادت سعادتي عندما رأيتها تتصل بالمدرسين وتطلب منهم أن يساعدوني في عبور السنة الدراسية و تترجاهم لكي يصبروا علي لأنني يتيم.

كنت سعيدا لأنني نجحت في العودة لدور البطولة واستطعت أن اقتسم النجومية مع رامي, الفرق أنني كنت بالأمس الطفل المدلل واليوم صرت الطفل الشقي البليد.

كنت أعلم أن استمراري في البطولة يعتمد على اتقاني وبراعتي في أداء دوري,وأنني إذا تخليت عن هذا الدور سأعود إلى الصفوف الخلفية مرة أخرى و ربما أطرد من الفيلم كله .كنت أتعمد التظاهر بالاستماع إلى شرح المدرسين بينما أشغل عقلي بالتفكير في مباراة الكرة التي سألعبها مع أصدقائي, كنت أخرج كل سنة وأنا أحمل معي على الأقل ملحقين رغم أنني لو

قضيت ساعة قبل كل امتحان في المذاكرة لاستطعت أن أحصل على درجات أعلى من درجات زملائي المجتهدين.

شعرت بالانتصار وأنا أرى الإحباط وخيبة الأمل يحفران أثارهما على ملامح أمي, كنت انتقم منها على خيانتها لي, كنت أريد أن أطعمها العلقم الذي استقر في حلقي يوم أن أدخلت مراد ورامي إلى حياتي. كنت أعلم أنني لكي أتقن دور الطفل الشقي المزعج لابد ألا أتخلي عن صحبة الأشقياء والضالين, لذلك اخترت وسام ومازن وحاتم, أكثر ثلاثة طلبة مشاغبين ومتمردين في المدرسة حتى يكونوا أصدقائي.

حياتهم كانت تشبه حياتي كثيرا, أهل مازن كانوا يعملون في الخليج لذلك تركوه لجدته العجوز لكي تربيه, والدي وسام تطلقا قبل أن يخرج للحياة ثم تزوجا وصار لدى كل منهما عائلة فتركاه مع شقيقه الأكبر, أما والدي حاتم فكانا يعملان في وظائف مرموقة ولقد ابتلع عملهما حياتهما ولم يترك لهما وقتًا للاهتمام به.

كنا نرى أنفسنا طيور متمردة هربت من سرب المجتمع الكبير وكونت سربًا صغيرًا خاصا بها, اتقنا فن القفز فوق السور. كنا نشفق على التلاميذ الذين يتحملون عبأ الجلوس في الفصل والاستماع إلى شرح المدرسين الممل وينكفئون على الكتب طوال اليوم بينما نحن نقضي أمتع الأوقات في مباريات كرة القدم والذهاب إلى السينما ثم نعود إلى منزل وسام الخالي دائما من الكبار لنلعب بالأتاري والكوتشينة والدومينو ونشاهد التليفزيون ونستمع لأحدث شرائط الكاسيت.

كنت افتخر أمام أصدقائي بعدد المرات التي دخلت فيها مكتب الناظر وعدد المرات التي طُردت فيها من الفصل, وعدد المواد التي حملتها معي من السنة الماضية كما يفتخر أبطال الأولمبيات بعدد الميداليات التي حصلوا عليها. في نفس الوقت كان رامي يحقق النبوءة التي حملها لقبه" الطفل المعجزة ". لقد نجح في المشي قبل أن يبلغ ستة أشهر, ونجح في أن ينطق كلمتي" ماما وبابا " قبل أن يبلغ عامًا, ونجح في تعلم حروف الهجاء العربية والانجليزية قبل أن يتم ثلاثة أعوام. كان مراد يعشق تذكير رامي يوميا بالدور المطلوب منه في الحياة, يسأله كل صباح على مائدة الإفطار " عايز تطلع إيه لما تكبر ؟", فيهتف رامي بحماس " دكتور أسنان زيك يا بابا ".

أراد مراد أن يضمن تفوق رامي والتحاقه بكلية الطب فأدخله مدرسة لغات خاصة بمصروفات كبيرة , لم يخيب رامي أمل والده واستطاع الصعود على سلم النجاح بسهولة ويسر بفضل ذكائه الحاد وذاكرته الفوتوغرافية.

كان الأول على فصله ثم صار الأول على مدرسته, لم يكتف بالتفوق الدراسي بل كان أيضا متفوق رياضيًا فحصل على مراكز متقدمة في السباحة والكاراتيه, وبعد أن كان لقبه " الطفل المعجزة "حصل على لقب جديد" الطفل العبقري" .

كانت علاقتي به قائمة على الكراهية والحسد المكتوم من ناحيتي والاحتقار والتكبر من ناحيته, كنت أكرهه لأنه اختطف أمي مني وكنت أحسده على اهتمامها واهتمام مراد الزائد به, و كان هو يحتقرني ويراني إنسانا فاشلاً هدفه الوحيد في الحياة العبث و إضاعة الوقت وافتعال المشاكل وتعكير مزاج أمي, كان يرى نفسه أفضل مني لأنه استطاع أن يكون الطفل الذي رفضت أن

أكونه, الطفل الذي يثير الفخر والزهو في قلوب أسرته, ويثير الغيرة والإعجاب في قلوب زملائه.

ظل الهوة تتسع بيني وبينه حتى أصبح كل منا يعيش في جزيرته الخاصة ولم نعد نجتمع على نفس المائدة أو نتجاذب أطراف الحديث إلا نادرا.

وفاتي قلبت حياة رامي رأسا على عقب وبدلت نظرته لنفسه ولي ولكل شيء حوله, اكتشف اليوم أن مشاجراته معي كانت تافهة وكراهيته لي كانت بلا أسباب حقيقية وأن التفوق الذي يتباهى به أمامي كان زائفا وفارغا وبلا معنى, شعر أنه كان يجتهد ويهلك أعصابه ويجري في السباق الدنيوي من أجل لا شيء. ما معنى التعب والاجتهاد والعمل والسعي من أجل تحقيق شيء يمكن أن يؤخذ منك في أي لحظة ؟.

إن حياتك نفسها يمكن أن تؤخذ منك في أي لحظة وبدون سابق إنذار. نظرته لي تبدلت تماما بعد أن عرف بتقرير الطب الشرعي ورأى صورتي في المظاهرة, اكتشف أنني لم أكن باسل العابث التافه صانع المشاكل بل كنت شخصا مختلفا تماما , شخصا عميقا وغامضًا ومثيًرا للاهتمام, وهو اليوم يشعر بندم عميق لأنه لم يسعً لمعرفة هذا الشخص.

10 -

اضطر مراد أن يوافق على قرار أمي حتى تتركه يوصلها إلى مكان المظاهرة,

كان مراد قبل وفاتي قادرا على السيطرة عليها وتوجهيها كيفما يشاء بكل سهولة , ولكنها بعد وفاتي تغيرت وصارت مثل الحصان الجامح ينطلق كما يحلو له في المروج بدون أن يأبه للحواجز والحدود, إنه يخاف عليها بشدة, يخاف أن يقودها غضبها وحزنها وتهورها إلى إيذاء نفسها , ويريد أن يحميها من حدوث أي مكروه لها.

اقترب مراد بالسيارة من شارع 26 يوليو, أرسل بصره ناحية مبنى دار القضاء العالي فرأى مجموعة من الناس لا يزيد عددهم عن عشرين شخصًا يقفون أمام مبنى الدار و يحملون نعشًا خشبيًا ويرفعون صوري . شعر بالسرور عندما رأى علامات الاندهاش تكسو ملامح أمي, اعتقد أنها ستعترف له أنه كان على حق وستعتذر له وستطلب منه العودة إلى المنزل, لم يعرف أنها لم تكن مندهشة من قلة أعداد المشاركين في المظاهرة ولكنها كانت مندهشة من ضخامة أعداد جنود الأمن الذين حملوا عصى خشبية وصدادات و شكلوا دائرة كبيرة مغلقة حول المتظاهرين حتى يمنعوهم من التحرك كأنهم ميكروبات تحمل أمراضا معدية, أدهشتها الابتسامة الواثقة التي ارتسمت على وجوه المتظاهرين وهم يهتفون بحماس " باسل شهيد مش كافر " .

أصيب مراد بالصدمة عندما رأى أمي تترجل من السيارة و تمشي باتجاه المظاهرة, ظل ينادي عليها :" يا سوسن أرجوكي ارجعي بلاش تعرضي نفسك للتهلكة ",

صمت أذنيها عن كلامه واستمرت في المشي رغم ارتعاش جسدها وتسارع دقات قلبها.

لم تهتم بنظرات جنود الأمن الساخرة منها و لا بتحذيراتهم لها من الأذى الذي سيصيبها إذا وقفت في تلك المظاهرة, ركزت بصرها على وجوه منظمي المظاهرة الذين رحبوا بها وأفسحوا لها مكانا بينهم حتى تشاركهم في حمل النعش.

كان المشاركين في المظاهرة كلهم من الشباب ما عدا سيدة عجوز سمراء نحيلة.

كانت هذه السيدة هي أشدهم حماسًا في الهتاف رغم علامات المرض والشيخوخة البادية على وجهها, وقفت أمي بجوارها وأخذت تتطلع إليها بمزيج من الدهشة والامتنان. فهمت السيدة من نظرة أمي أنها تستغرب مشاركتها في المظاهرة, رسمت على وجهها ابتسامة منكسرة ثم ربتت على كتفها وقالت لها بأسى" ابني اتقتل من سنة على إيد مخبرين في الشارع بس مقدرناش نعمل حاجة لأننا ناس غلابة" .

أصيبت السيدة بحشرجة في صوتها فأطرقت برأسها في الأرض ومسحت الدموع التي سالت من عينيها, جاهدت حتى استطاعت أن ترفع رأسها عاليًا ثم أردفت : "أنا كنت بخاف من المظاهرات زمان بس دلوقتي معدتش بخاف, خلاص معادش عندي حاجة أخاف عليها أو أخاف منها".

تطلعت أمي لبئر الحزن القابع في عينيها الرماديتين فأحست أنها ترى نفسها في المرآة.

قبل أن تسألها عن اسمها شعرت أن المتظاهرين حولها يتحركون وسمعتهم يطالبون الجنود بالسماح لهم بالتقدم للأمام, لكن الجنود دفعوهم للخلف وانهالوا عليهم ضربًا بالعصي فتعالت صرخاتهم . أصيبت أمي بالهلع, التصقت بالسيدة العجوز وأخذت تصيح في الجنود:

-حرام عليكم هما عملوا إيه علشان تضربوهم ؟ ", دول بيدافعوا عن ابني , انتم مش عارفين إيه اللي حصله

كانت أمي على وشك أن تحكي للجنود قصتي ولكن أحدهم قاطعها :

- دي حجة, هما دايما بيتحججوا بأي حاجة علشان ينزلوا, دول شوية عملاء, أمريكا وإسرائيل مأجرينهم علشان يخربوا البلد.

اقتربت سيارة الشرطة من مكان المظاهرة و خرج منها ضابط شاب ثم أمر الجنود بالقبض على المتظاهرين ووضعهم في " البوكس ", تطلع الضابط بشفقة لأمي و للسيدة العجوز وقال لهما:

-انتم الاتنين ستات كبار و إحنا مش عايزين نبهدلكم علشان كده هنسيبكم تروحوا, إحنا عندنا قلب برضه.

ارتسمت على وجه السيدة العجوز ابتسامة متهكمة وقالت للضابط:

-كتر خيركم انتم طيبين قوي .

قطبت أمي جبينها وكادت ترد على الضابط, ولكن السيدة العجوز لكزتها قائلة : " أوعي تتكلمي , انتي باين عليكي أول مرة تيجي في مظاهرة" ثم تركتها وعبرت إلى الجهة الأخرى من الشارع.

خرج مراد من السيارة وأخذ ينادي على أمي ويطالبها بأن تعود معه, ولكنها ظلت متسمرة في مكانها وعيناها مثبتتان على الجنود الذين ركضوا باتجاه المتظاهرين ,وقاموا بسحب النعش منهم و تحطيمه بأحذيتهم السوداء الثقيلة وألقوا بصوري في الأرض, ثم قاموا بجرهم إلى سيارة الشرطة بالقوة كأنهم ذبائح العيد.

حاول الشباب أن يقاوموا مصيرهم المحتوم بالأنين و الصراخ, توحد صراخهم حتى شكل طبقة كثيفة من الضجة لم يستطع الجنود إيقافها إلا بالمزيد من الضرب والسحل, سالت الدماء من رؤوسهم, سقطت على صوري الملقاة على الأرض وصبغتها بلونها الأحمر القاني. كانت أمي تريد تجرى باتجاه المتظاهرين وتخلصهم من قبضة الجنود ولكن جسدها أبى أن يتحرك للأمام, كانت تريد أن تفتح فمها وتصرخ وتعترض ولكن الكلمات اختنقت في حنجرتها, جرى مراد نحوها, أمسك بذارعها وأخذ يسحبها برفق باتجاه السيارة, سارت معه ببطء بينما ظلت عيناها موزعتين بين سيارة الشرطة التي غادرت الشارع بسرعة وبين السيدة العجوز التي وقفت على الرصيف وودعتها بابتسامة يائسة.

***

جلست أمي في سيارة مراد وهي تشعر بالغضب من نفسها , لقد خذلت الشباب الذي خاطروا بحياتهم للدفاع عن قضيتي, شعرت إنها لا تختلف كثيرا عن جيراني الذين وقفوا في صمت وشاهدوني أصارع الموت وحيدا, لقد اتهمتهم بالجبن وهي لا تقل جبنا عنهم, لقد خافت على نفسها بعد أن عملت أن اعتراضها على اعتقالهم سيؤدي إلى اعتقالها هي الأخر, لكنها الآن تكره نفسها

وتكره ضعفها وتكره صمتها وتكره استسلامها وعجزها وتكره خوفها, خوفها الذي ظننت أنها انتصرت عليه عندما تجاوزت الجنود ووقفت في المظاهرة عاد وتمكن من السيطرة عليها وهزمها بالضربة القاضية, كانت على وشك البكاء عندما رن هاتفها المحمول, نظرت إلى شاشة الهاتف فرأت رقم رائف عبد العزيز المحامي. لقد وعدته أن تتصل به ثم نسيته تماما, حياها ثم قال لها معتذرا :

-أنا آسف أنا كنت عايز أحضر المظاهرة بس مقدرتش لأني كنت مشغول في المكتب.

غالبت دموعها وهي ترد عليه :

-لا كويس إنك مجتش, العساكر ضربوا الشباب وجروهم لغاية البوكس بالعافية , أنا خايفة قوي عليهم يا أستاذ رائف.يا ترى هيعملوا فيهم إيه ؟

-هدي نفسك بس يا مدام سوسن واطمني, أنا هبعت لهم النهاردة محامي من المركز وإن شاء الله هنقدر نخرجهم في أسرع وقت ممكن.

ردت عليه بلهفة:

-ياريت يا أستاذ رائف, أنا عايزة اشكرك لأن مكالمتك جات في وقتها وعايزة أعتذر لك لأني متصلتش بيك علشان أوكلك في القضية.

- مش مشكلة يا مدام, لو عايزة نتفق على القضية النهاردة أنا مستعد, حضرتك موجودة في البيت بالليل ؟

-أيوه أنا موجودة أهلا وسهلا, حضرتك تشرف في أي وقت.

أنهت أمي المكالمة مع رائف وقد انفرجت أساريرها وتضاءل إحساسها بالذنب والخوف على مصير المتظاهرين الشباب.

***

جلست أمي أمام التليفزيون في المساء وأخذت تقلب بين القنوات الفضائية بحثًا عن أي خبر يتحدث عن اعتقال الشباب في مظاهرة اليوم ولكنها لم تجد شيئًا, توقفت عن تغيير القناة عندما رأت إحدى مقدمي برامج " التوك شو" يذيع خبرًا يقول أن المتحدث باسم وزارة الداخلية أكد كذب الشائعات التي تدعي أن هناك قيادات في الوزارة أرسلوا مخبرًا لقتل باسل هاشم لأنه كان ينتمي لحركة احتجاجية معارضة.

أتبع المذيع هذا الخبر بخبر آخر حصري منقول عن جريدة الأنباء القومية يقول " لقد كشفت الجريدة أن باسل هاشم عندما توفى كان طالبًا في كلية الحقوق في الفرقة الثالثة رغم أنه يبلغ من العمر 26 عاما بسبب رسوبه المتكرر, وهذا الرسوب ليس جديدًا عليه فلقد تم فصله من مدرسته وحرمانه من أداء امتحان الثانوية العامة بسبب سوء سلوكه " .

زفر المذيع بعد أن انتهي من قراءة الخبر ثم عقد حاجبيه و قال مستنكرًا :

" إزاي يا جماعة نعمل من واحد فاشل في دراسته بطل ونقول عليه شهيد ؟ "

احتاجت أمي عاصفة من الغضب, كادت أن تقذف كوب الماء الموضوع أمامها على شاشة التليفزيون, ولكنها اكتفت بإغلاق التليفزيون, أخذت تلعن المذيع والإعلام والبوليس والحكومة والبلد. لقد تحقق أسوأ مخاوفها وفتش أحدهم في تاريخي وكشف الأشياء التي جاهدت حتى تخفيها عن الجميع, لقد أخطأت عندما جازفت و فتحت بابها لوسائل الإعلام .

فجأة سمعت رنين جرس الشقة, من المؤكد أنه رائف المحامي. استولى عليها القلق ,احتارت ماذا تقول له عندما يسألها عن الخبر ؟ .

للأسف لم يكن أمامها وقت للتفكير, هرعت لتفتح الباب, رأت رجلاً نحيلا يقف أمامها ويحييها ويخبرها أنه رائف عبد العزيز المحامي, كان أسمر متوسط الطول , أجعد الشعر وفمه الواسع يعلوه شارب صغير.

رحبت به وأرشدته إلى حجرة الصالون, ابتسامته الهادئة ونظرته العطوفة خففت من حدة توترها, طمأنها أن أحد المحامين في المركز نجح في إخراج المتظاهرين من قسم الشرطة ثم شرع في الحديث معها عن تفاصيل القضية, حاولت أن تتظاهر أمامه بالهدوء وتداري خوفها وترقبها لحديثه عن الخبر الذي ُأذيع اليوم .

امتقع وجهها عندما رأته يطرق برأسه في الأرض ويغمغم :

- أنا اتضايقت جدا لما سمعت الخبر اللي نشرته جريدة الأنباء عن باسل

ابتسمت له بقلق وسألته :

-طب و يا ترى حضرتك صدقت الخبر ده ؟

رد عليها بثقة:

-طبعا لا, الخبر ده أكيد متلفق بس حتى لو كان صحيح فهو ملوش علاقة بالجريمة التي حصلت, والهدف الوحيد من نشره هو التشويش على القضية, وده اللي أنا عايزك تقوليه لو أي حد اتصل بيكي ويطلب منك التعليق على الخبر.

تنفست الصعداء وندت عنها ابتسامة ارتياح, لقد أنقذها رائف من ورطة عسيرة وأزاح عنها عبأ الاعتراف بحقائق محرجة تريدها أن تبقى مدفونة للأبد.

-11

كانت أمي مضطرة أن تقترف الكذب وهي تجيب عن أسئلة الإعلام عن حياتي ودراستي وعملي لأنها تعلم أن الناس لا يقبلون أن يكون شهدائهم وأبطالهم بشرا من لحم ودم , يريدونهم أن يكونوا مخلوقات ملائكية لا تعرف سوى الخير والحق والفضيلة, لذلك اضطرت أن تقدم لهم شخصًا مثاليًا لا تشوب أخلاقه وتصرفاته شائبة رغم أن هذا الشخص لم يكن له وجودا في الواقع .

الحقيقة أنني لم أكن ملاكًا ولم أكن كذلك شيطانًا, كنت شابا غاضبا خُيل إليه أن الطريق المعاكس هو طريق المغامرات والمتعة. اعتقدت أنني صرت رجًلا بعد أن دخلت المرحلة الثانوية و طالت قامتي ونما شاربي وصار صوتي غليظا , قررت أن أتبع قواعد الرجولة التي وضعها أصدقائي, كنت أضع طرف السيجارة بين أصبعي في زهو وأخرج دخانها من أنفي بهدوء وأحاول كبح سعالي لكي أبدو مدخنا محترفا, أقف بجوار أصدقائي على النواصي, ألقي بنظراتي الجائعة الوقحة على أي أنثي يوقعها حظها العاثر في العبور أمامي, و أصب عليها أكثر أنواع الغزل ابتذالاً وأتبادل معهم النكات القذرة والتلميحات الرخيصة حول مفاتنها. رغم استمتاعي بأداء دور الفتي الضال كان هناك صوتا يهمس في أذني بين الحين والأخر ليحذرني أن ما أفعله مخالف لفطرتي وأنني من المستحيل أن أكمل حياتي بهذه الطريقة, ولكني كبحت هذا الصوت لأنني كنت أفضل أن أكون جزءًا من الكل على أن أكون واحدًا صحيحًا.

في أحد الأيام قابلني صديقي مازن قبل أن أدخل المدرسة والغضب يكدر ملامحه, أخبرني أن هناك شلة من الأولاد عاكسوا صديقته على باب المدرسة, وطلب مني أن أشارك الشلة في الانتقام منهم.
بمجرد أن أشار إلى الأولاد جريت ناحيتهم كالفارس المغوار ثم طرحت أحدهم أرضًا وتبادلت معه اللكمات, تمكنت من الإمساك بذراعه ولويتها بعنف, أخذ الولد يصرخ ويصيح ويستغيث بينما كان أصدقائي يضحكون عليه ويهنئوني على شدتي في ضربه .
كنت فخورا بنفسي بعد أن خرجت من المشاجرة منتصرًا وأثبت لأصدقائي أنني رجل يمكنهم الاعتماد عليه, عندما ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي فوجئت بالحارس يخبرني أن المدير أعطاه تعليمات بمنعي من دخول المدرسة إلا بمرافقة ولي أمري لأن الولد الذي ضربته بالأمس تعرض لكسر في ذراعه .
الكلمات لا يمكنها أن تصف الإحساس بالذنب الذي شملني عندما رأيت أمي تقف منكسة الرأس أمام الناظر ووالد الطالب الذي كسرت ذراعه و تتلقى منهما وصلة تأنيب وتوبيخ قاسية.
أخذت أمي تعتذر للرجل عشرات المرات وعرضت عليه أن تدفع له ثمن علاج ابنه ولكنه رفض اعتذارها وقال لها : " ابنك المفروض يترمي في السجن لأنه كان هيجيب لإبني عاهة مستديمة " . أما ناظر المدرسة فأخذ يحصي لها عدد المرات التي طُردت فيها من الفصل وعدد مرات رسوبي, وعدد مرات هروبي من المدرسة وعدد مرات اشتراكي في مشاجرات مع باقي التلاميذ ثم أنهى كلامه بحزم قائلاً " أنا تسامحت مع ابنك بما فيه الكفاية

لأنه يتيم ولكن بعد اللي حصل ده مش ممكن يقعد في المدرسة دقيقة واحدة, ابنك مفصول من المدرسة نهائيًا ومحروم من دخول امتحان الثانوية العامة السنة دي ".

قرار الناظر أصابني بالصدمة رغم أنه كان متوقعا, لم تحاول أمي أن تدافع عني أو أن تقنع الناظر بالعدول عن قراره بل شكرته على احتماله لي كل هذه السنوات وخرجت من مكتبه سريعا والوجوم يكسو وجهها.

خرجت من مكتب الناظر ورائها لأجد أصدقائي يقفون مع أولياء أمورهم في انتظار الدخول, ما أن لمحوني حتى أشاحوا بوجههم بعيدا عني حتى لا تتلاقي عيونهم بعيوني , أدركت في تلك اللحظة أن صداقتي بهم انتهت, ألقيت نظرة وداع سريعة على المدرسة ثم خرجت منها وأنا أشعر بالأسى. سبقتني أمي بخطوات, أسرعت حتى أمشي بجوارها, كانت كل حواسي في أقصى درجات التحفز بانتظار رد فعلها.

توقعت أن تصفعني على وجهي أو تشتمني أو تلومني على ما فعلته, ولكن يبدو أنها أحست أنني أقل وأتفه من أن تستهلك أحبالها الصوتية من أجلي, لذلك قررت أن توقع علي أقسي عقوبة , " الصمت ". ظلت تعدو ثم تتوقف فجأة و تنظر للشارع كأنها طفلة تائهة تبحث عن من يرشدها إلى طريق الصواب, طول صمتها وطول انتظاري لرد فعلها أنهك أعصابي. حاولت أن أستفزها حتى تتكلم, هتفت " أنا آسف يا ماما ".

لم تستجب لي, أخذت تهرول حتى تبتعد عني, هتفت بصوت ملهوف" ماما أرجوكي سامحيني" . أخيرا أدارت رأسها وتطلعت إلي , اطلقت من عينيها رصاص الغضب والاحتقار علي. أصابت طلقات الرصاص الفتى المشاغب

داخلي وأردته قتيلا, إنني المصدر الحقيقي لتلك الطلقات فالرصاص الذي أطلقته عليها قديما أرتد إلي بدون أن أشعر. تلك الواقعة جعلتني اكتشف أمرا هاما, الحياة ليست كالأفلام, ففي أثناء تصوير الأفلام يمكن للممثلين أن يعيدوا مشاهدهم حتى يتمكنوا من أداء أدوارهم بشكل صحيح, أما في الحياة فلو أخطأت في أداء دورك فلن يسمح لك الزمن بالعودة للوراء حتى تصلح خطأك وتعيد التمثيل بشكل أفضل.

***

كان طردي من المدرسة أشبه بمطرقة ثقيلة سقطت على رأس أمي فأيقظتها من غفلتها ونبهتها إلى ضرورة أن تفعل أي شيء حتى تمنعني من الانزلاق في طريق الانحرا. سمعتها من وراء باب حجرتي وهي تشكو لمراد وتسأله عن الحل.

سمعته يلومها قائلا : " انتي اللي غلطانة لأنك دلعتيه كتير بحجة إنه يتيم ومكنتيش بتراقبيه ولا بتحاسبيه, لازم تشدي عليه شوية وتعاقبيه على اللي عمله ده "

بعد قليل دخلت أمي حجرتي ثم قالت لي بلهجة آمرة " أنت ممنوع من الخروج من البيت ومن المصروف ".

أذعنت للعقاب بدون أن أسألها عن مدته أو عن موعد الإفراج لأني شعرت أنني استحقه بل استحق أشد منه. ظللت منزويا في حجرتي معظم الوقت, لم أكن أخرج منها إلا للضرورة القصوى ثم سرعان ما أعود إليها أختفي داخلها كما تخفي السلحفاة رأسها داخل منزلها الصغير. شعرت في البداية بالملل من العزلة ولكن حواسي اعتادت على السكون التام تدريجيًا.

صار الكمبيوتر الذي اشترته أمي لي قبل طردي من المدرسة بأسبوعين بمناسبة عيد ميلادي هو صلتي الوحيدة بالعالم الخارجي, كنت أقتل الوقت بالانغماس في الألعاب الالكترونية والغرق في أحاديث لطيفة مع بنات و شباب يعيشون في دول بعيدة, إدماني المفرط على الانترنت أزعج أمي وجعلها تدرك أنها تعالج انحرافي بإيقاعي في مرض آخر, مع مجيء السنة الدراسية الجديدة قررت أن تقطع علي عزلتي وأمرتني أن أفتح كتبي وأعود للمذاكرة حتى أستطيع أن أؤدي امتحان الثانوية العامة.

سيرة الامتحانات والدروس أزعجتني ولكني لم أمتلك إلا الامتثال لقرارها والعودة إلى الدراسة. كانت توصلني للدروس وتأتي لاصطحابي للمنزل بنفسها حتى تضمن عدم هروبي, كنت أجلس أمام المدرسين وأحاول الاستماع إلى شرحهم وبعد أن أعود للمنزل كنت أحاول أن أركز في الحفظ وحل المسائل, ولكني كنت أفشل لأن عقلي الذي اعتاد على الكسل والخمول كان عاجزًا عن امتصاص المعلومات في الكتب و هضمها و تحويلها إلى كلمات مفهومة .

فشلي قادني لكي أسأل نفسي لماذا أذاكر ؟ لكي انجح. ولماذا أنجح ؟ لكي التحق بكلية محترمة من وجهة نظر المجتمع مثل الطب أو الهندسة أو الصيدلة, ولكني لا أريد أن أكون طبيبًا أو مهندسًا أو صيدليًا. لم أعرف ماذا أريد أن أكون وماذا سأفعل بحياتي, ومع ذلك انتظمت في حضور الدروس وحاولت أن أذاكر على قدر استطاعتي حتى أثبت لأمي أنني تغيرت وصرت إنسانا صالحا جديرا بثقتها, شعرت بالسرور عندما ظهرت نتيجة الثانوية العامة وعرفت أنني نجحت بلا ملحق بمجموع 65 في المائة. نجاحي في

حد ذاته كان سببًا في سعادة أمي وإحساسها أنها نجحت في تقويمي رغم أن مجموعي لم يترك لي في قائمة الاختيارات سوى كلية الحقوق وحفنة من المعاهد الخاصة. وافقت على الالتحاق بكلية الحقوق رغم أنني لم أتخيل نفسي محامًيا في يوم من الأيام إرضاءً لأمي.

في البداية كنت أذهب للكلية وأحضر المحاضرات بانتظام واكتب وراء الأساتذة, المعلومات القانونية التي قرأتها في الكتب وسمعتها في المحاضرات بدت لي كأنها عبارات مكتوبة باللغة الهيروغليفية, ومع ذلك قررت أن أبقى في كلية الحقوق بعد أن تعرفت على مجموعة جديدة من الأولاد كانوا يشاركوني في كراهية الدراسة وحب التنزه. كنت أتظاهر أمام أمي أنني أذهب إلى الكلية في حين أنني كنت أرافقهم إلى محلات البلاي ستشين والنت كافية والمنتزهات, وفي أخر السنة كنت أذاكر ما تيسر لي قبل ليلة الامتحان وأجيب على أسهل الأسئلة.

رسبت في السنة الأولى وبعد أن أعدت السنة رسبت في مادتين, هكذا كانت حياتي سنة رسوب و سنة نجاح أقرب إلى الرسوب.

كانت أمي تستغرب من استمتاعي الشديد بتلك الحياة البوهيمية العبثية وعدم غيرتي من أقاربي و جيراني الذي أنهوا دراستهم و حصلوا على وظائف بينما أنا لا أزال عالقا في الفرقة الثانية. كان الخوف يتملكها عندما تتخيل ملامح مستقبلي, أخذت تحذرني أنني لا يمكن أن أقضى بقية حياتي أمام الكمبيوتر أو في التسكع مع أصدقائي, فلابد أن يأتي يوما أصير فيه رجلا وموظفا ورب أسرة .

لم أعبأ بمخاوفها ولا بتحذيراتها لأنني كنت أكره التفكير في المستقبل والتخطيط له. لم أكن أريد من الحياة شيئًا غير أن استمتع بيومي إلى أقصي درجة. لم أشأ أن أكون مثل أبي الذي حرم نفسه من الأسرة و الوطن وقضي حياته كلها في العمل والاجتهاد حتى يُكون ثروة, ثم توفي فجأة قبل أن يتمكن من الاستمتاع بحياته وإنفاق ثروته, قررت أن أستمتع بالحاضر الذي أملكه بدلا من أن أخطط لمستقبل لا أملكه.

كانت أمي تظن أن استهتاري وإهمالي لدراستي ليس إلا محاولة أخرى للانتقام منها و تعذيبها, لكنها بعد وفاتي صارت ترى تصرفاتي من منظور آخر وبدأت تتساءل إذا كانت لهفتي على عيش يومي وعدم تفكيري في المستقبل نابعين من إحساسي أنني سأغادر الحياة مبكرًا؟.

***

كانت أمي تجلس بمفردها في المنزل صباحًا بعد أن ذهب مراد إلى عيادته وذهب رامي إلى كليته عندما سمعت رنين جرس الشقة.

فتحت باب الشقة لتجد فتاة شابة ضئيلة الحجم تقف أمامها, كانت تربط شعرها الأسود على شكل ذيل حصان وترتدي فستانا أسود واسع وطويل, ألقت عليها الفتاة السلام بصوت واهن يشوبه الحزن. ظنت أنها إحدى الفتيات اللاتي تأثرن بقصتي فجاءت لتعزيتها .

بسطت يدها اليمنى لكي تصافحها ولكنها فوجئت بها ترتمي في أحضانها وهي تهتف بأسى " أنا آسفة ". ظنت أنها تتأسف على تأخرها في تقديم التعزية, ربتت على ظهرها قائلة : " ولا يهمك يا حبيبتي ,أنا مستعدة استقبل العزاء في أي وقت .

ردت عليها الفتاة وهي تبكي : " لا , أنا بعتذر لسبب تاني "
طفت علامات الاستفهام على وجه أمي, حنت الفتاة رأسها وغمغمت:
-أنا أعرف حضرتك مع إن حضرتك مش عارفاني. أنا اسمي نوران حسن, أنا صحفية في جريدة الأيام وأنا اللي كتبت الخبر عن وفاة باسل وأنا اللي نشرت صورته في المظاهرة. أنا كنت أعرف باسل وأنا السبب في موته.

-12

حتى أنتِ يا نوران. حتى أنتِ تعتقدين أنك المسئولة عن رحيلي؟, حتى أنتِ تعتقدين أنكِ كنتِ قادرة على تأجيل موعد وفاتي ؟, هل تصدقين أنني كنت سأعيش عمرًا مديدًا إذا لم أقابلك ؟ ,ألا تعلمين أن لقائنا كان قدرًا و أن وجودك في حياتي كان ضروريًا لأنك بعثتي داخلي شخصًا جديدًا لم أكن أتخيل وجوده ؟.

هذا هو الكلام الذي كنت أريد إيصاله لنوران عندما رأيتها تقضي كل ليلة محترقة بلهيب دموعها, كانت المسكينة تصارع موجتين قويتين إحداهما تجذبها للذهاب إلى النيابة والإفصاح عن هويتها و تقديم شهادتها, والأخرى تشدها للخلف و تحذرها أنها ستقدم لرجال الأمن ما يشتهونه بظهورها للعيان وأن ما حدث لي سيتكرر معها ربما بصورة أعنف وأقسى.

***

كنت قد بلغت سن الرشد من أسبوع واحد فقط وأصبح من حقي التصرف في الأموال التي ورثتها عن أبي كما أشاء,قررت أن أسحب جزءًا كبيرًا من ميراثي لكي أشتري لنفسي سيارة. كنت أشعر بالحرية والسعادة وأنا أجوب الشوارع بسيارتي, كنت مثل الطفل الذي اشترى لعبة جديدة و يريد أن يلهو بها طوال الوقت.

كنت في طريقي لزيارة أحد أصدقائي عندما دخلت شارعا خلفيا لا يعكر هدوئه سوى صوت هبوب رياح الخماسين, أخذت أبحث عن العمارة التي

يسكن فيها صديقي, تناهى إلى سمعي صوت نشيج أنثوي متقطع, أخرجت رأسي من شباك السيارة وأخذت أجول بعيني باحثًا عن مصدر النشيج. تملكني الفزع عندما رأيت فتاة شابة تجري باتجاهي لاهثة وتغطي قميصها بيديها. وجهها الخمري كان ملطخا بالغبار والدموع كأنه أرض متسخة سقطت عليها الأمطار, خصلات شعرها الأسود الطويل كانت مبعثرة كأنها استيقظت لتوها من النوم, الرعب كان يسكن عينيها السوداويين الواسعتين.

ظننت أنها ضحية اعتداء أو سرقة فخرجت مسرعًا من سيارتي وعرضت عليها المساعدة. ضمت يديها فوق صدرها و ابتلعت ريقها بصعوبة, شكرتني بصوت مجروح ثم ركبت سيارتي. سألتها عن مكان سكنها فقالت لي " الزمالك " وهي تنظر إلى الخلف.

استطاعت أن تنفصل عن خوفها وانتبهت إلى وجودي عندما رأتني أنظر إليها بعطف, أومأت لي وشكرتني على إنقاذها. تحرجت من سؤالها عن تفاصيل الحادث الذي وقع لها حتى لا تعتقد أنني متطفل , هتفت فجأة بصوت يتقد غيظا" منهم لله ", فهمت أنها تدعو على المجرمين الذين اعتدوا عليها ومزقوا قميصها. ارتفعت درجة حرارة فضولي ,سألتها إذا كانت تعرضت للسرقة. هزت رأسها بالنفي وأخبرتني أنها ضحية جريمة من نوع آخر ترتكبها قوات الأمن في حق أي شخص يجرؤ على التظاهر أو الوقوف في وجه النظام. أخبرتني أن اسمها نوران وأنها تعمل صحفية, وأنها كانت تشارك في وقفة احتجاجية أمام المحكمة ضد حبس أحد الطلاب في كلية الإعلام ظلمًا لأنه كتب قصيدة شعرية في جريدة الجامعة اعتبرها المسئولون مهينة لرئيس الجمهورية. ولكن جنود الأمن حاصروا تلك الوقفة وقاموا

بالاعتداء على كل المشاركين فيها وعندما حاولت الهروب منهم مزقوا قميصها وحاولوا القبض عليها ولكنها تمكنت من الافلات منهم وركضت حتى وصلت إلى هذا الشارع.

تفاصيل التي روتها صدمتني , لقد شاهدت قوات الأمن من قبل وهم يفضون المظاهرات في الجامعة بطرق عنيفة جدا إلا أنني لم أتصور أن اعتداءاتهم يمكن أن تطول الفتيات, لم أملك إلا أن أواسيها بكلمة " معلش ". رغم تعاطفي معها كنت مندهشا من وجودها في تلك المظاهرة, كان رأيي في المظاهرات في ذلك الوقت مشابهًا لرأي أصدقائي الذين كانوا يعتبرونها عملاً عدوانيًا يقوم به مجموعة من الشباب المشاغبين, يطلقون شعارات هدفها تخريب البلد وتعطيل الحياة, لذلك قلت لها :

-الطالب ده يستحق الحبس لأنه مكانش المفروض يهاجم الرئيس.

امتقع وجهها وسألتني بانفعال:

-هو إنت قريت القصيدة ؟

تملكني الحرج و أنا أهز رأسي بالنفي, اتقد وجهها غضبا, ضربت قبضة يدها على ركبتها وهي تصيح :

- طيب إزاي حكمت إنه يستحق الحبس؟ و بعدين حتى لو كان هاجم الرئيس ده مش مبرر إنه يتحبس لأنه من حقه يعبر عن رأيه, لكن النظام ضعيف لدرجة إنه مش قادر يتحمل نقد من طالب في الجامعة والغريب إن في ناس كتير جهلة زيك بيساندوه .

وددت أن أخبرها أنني لا أساند النظام ولا أعارضه لأنني لست مهتمًا بالسياسة ولا أعرف شيئًا عن ما يحدث في البلد, لكني خشيت أن أصرح لها بتلك

الحقيقة حتى لا أقدم لها دليلا أخر يثبت جهلي, آثرت الصمت وركزت بصري على الطريق, فوجئت بها تطلب مني التوقف لأنها تريد مغادرة السيارة الآن. اعتذرت لها إذا كنت أزعجتها بكلامي ولكنها تجاهلت اعتذاري و أصرت على المغادرة فأوقفت السيارة وتركتها ترحل.

تراجعت عن زيارة صديقي وعدت إلى المنزل بعد أن وجدت نفسي واقعًا تحت رحمة تيارات متلاطمة من المشاعر. كنت غاضبا من عصبية نوران الزائدة وغاضبا من نفسي لأنني تسرعت في إصدار حكمي على قضية لا أعرف عنها شيئا بدلا من ألقي اللوم على أشباه الرجال الذين اعتدوا عليها. شعرت بالأسف لأنني لم أتمكن من معرفة اسم الجريدة التي تعمل فيها حتى أزورها وأقدم لها اعتذاري, صورتها وهي تجري في الشارع مفزوعة ظلت مطبوعة في ذاكرتي لأيام عديدة.

بعد لقائي بنوران بأسبوعين لفت انتباهي في التليفزيون خبرًا يقول أن محكمة شمال الجيزة ستعلن غدًا الحكم في قضية الطالب الجامعي المتهم بإهانة الرئيس, وأن هناك إجراءات أمنية مشددة سيتم اتخاذها من أجل تأمين المحاكمة خوفًا من المظاهرات التي سيقوم بها النشطاء السياسيون المدافعون عن الطالب المسجون. رغم اعتقادي أن الاعتداء الذي تعرضت له نوران سيردعها عن المشاركة في أي مظاهرة قررت أن أذهب إلى مقر المحكمة لعلي أجد أحدًا من زملائها أو زميلاتها في تلك المظاهرة وأعرف منهم مكانها. قبل أن أقترب بسيارتي من المحكمة ظهر أمامي شرطي وطلب مني التوقف لأن الشارع مغلق أمام السيارات. ركنت سياراتي في أقرب مكان ثم دخلت الشارع مشيًا. شعرت بالتوتر عندما رأيت عساكر الأمن يقفون أمام مبنى

المحكمة صفا واحدًا بجوار بعضهم حتى شكلوا حائطا طويلا أمام المتظاهرين الذين حملوا صورة الطالب المسجون وهتفوا مطالبين بالإفراج عنه.

فجأة توقفت الهتافات وعم الصمت في الشارع للحظات, رأيت المتظاهرين يقفزون مهللين ويعانقون بعضهم وهم يهتفون " الحمد لله , يحيا العدل ".

سمعت الرجل الواقف بجواري يقول لزميله أن المحكمة حكمت ببراءة الطالب مما نُسب إليه, انتقلت إلي عدوى الفرحة عندما رأيت الجنود ينصرفون من المكان ويركبون سياراتهم.

عبرت سريعا إلى الجهة الأخرى وقبل أن أقترب من احدي الفتيات لكي أسألها عن نوران سمعت صوتها الرخيم يرن في أذني, استدرت يسارًا فرأيتها تقف منتصبة القامة مرفوعة الرأس ترتدي قميصا برتقاليا زاهيا وبنطلون جينز أزرق وتضع نظارة شمس كبيرة على عينيها و تتبادل حديثًا ضاحكًا مع أحد الرجال. لمحتني وأنا أنظر إليها, تطلعت إلي بدهشة وتهلل وجهها. ألقيت عليها التحية و أخبرتها أنني جئت بعد أن عرفت أن الحكم في القضية سيكون اليوم لكي أعتذر لها. ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة وقالت لي:

-أنا اللي كان نفسي اعتذر لك لأني كنت قليلة الذوق معاك جدا رغم انك كنت شهم معايا, أعذرني لأني مكنتش في حالتي الطبيعية في اليوم ده .

داهمني الخجل وأنا أقول لها:

-مفيش داعي للاعتذار, ده أنا اللي المفروض اعتذر لك لأنك كنتي على حق.

أردت أن أسألها عن عملها ودراستها وحياتها ولكن كل الأسئلة تبخرت من ذهني عندما رأيت الشاب الواقف بجوارها ينظر لي بفضول. كان قصير القامة ضئيل الجسد, وجهه مثلث, بشرته بيضاء شاحبة تخترقها البثور, كان يرتدي

بدلة شتوية كحلية اللون فاخرة ولكنها ثقيلة ولا تتناسب مع الطقس الربيعي, توقف عن فحصي وتطلع إلى نوران متسائلا "مش تعرفيني على الأستاذ ؟ ".

شرحت له نوران باختصار كيف قابلتني بعد أن هربت من الجنود يوم المظاهرة وأخبرته أنني أوصلتها للمنزل, تطلع إلي باحترام ثم صافحني و شكرني على شهامتي, عرفني على نفسه بزهو قائلًا : "أنا الدكتور راجح عبد الغني مدرس مساعد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ".

ابتسمت له نوران وأردفت " أنا وراجح أصدقاء من زمان "

كلمة " دكتور " أثارت داخلي الإحساس بالرهبة نحوه فانكمشت أمامه كأنني تلميذ يقف أمام الأستاذ, داهمني القلق عندما سألني:

- إنت بتشتغل ولا بتدرس ؟

أجبته بنبرة مترددة :

- بدرس في سنة تانية في كلية الحقوق

خشيت أن تدفعني أسئلته إلى الاعتراف بحقيقة وضعي الدراسي, ولكن نوران أنقذتني بمدحها في كليتي " أنا كان نفسي أدخل حقوق وأبقى محامية علشان أدافع عن الناس اللي بيعتقلهم النظام كل يوم من غير ذنب ".

فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة صغيرة وقبل أن تعطيها لي أخبرتني أنها أسست مع راجح حركة احتجاجية اسمها " لا لتكميم الأفواه" هدفها الدفاع عن حرية الرأي و التعبير والاعتراض على وحشية السلطة في التعامل مع المعارضين, وأخبرتني أنها تتمنى أن أشرفها بحضور ندوة مهمة ستقيمها هي وراجح عن حقوق الإنسان بعد يومين. ألقيت نظرة سريعة على الورقة ثم شكرتها على الدعوة و وعدتها بالمجيء.

***

" ما الذي دهاني حتى أوافق على المجيء إلى هذا المكان ؟" , ظل هذا السؤال يلح على ذهني عشرات المرات بينما كان العرق يسيل من جبهتي من فرط حرارة القاعة الصغيرة التي كنت أجلس فيها بجوار عدد من الشباب من أصحاب النظارات السميكة و النظرات الجادة. داهمني الشعور بالغباء عندما رأيت علامات التأييد و الإعجاب ترتسم على وجوههم وهم يستمعون للمحاضرة السياسية التي كان يلقيها راجح عبد الغني, كان راجح يتلذذ باستخدام أكثر الكلمات تعقيدًا وصعوبة وهو يتحدث عن مقومات النظام الديمقراطي. كنت أريد الانصراف سريعًا قبل أن يخنقني الضجر, كلما أتطلع إلى نوران كان نبضي يتسارع وتلتصق قدمي بالأرض فأتذكر سبب وجودي هنا. تململت في مقعدي وأخذت أحصي الدقائق حتى يأتي دورها في الكلام لعل الكلام يكشف لي عن سر هذه الإنسانة الغريبة المدهشة التي عرضت حياتها للخطر دفاعًا عن شخص لا تعرفه.

أخيرا بعد نصف ساعة أنهى راجح محاضرته وأعلن مدير الندوة أن المتحدثة القادمة هي الأستاذة نوران حسن عبد الرحيم. قدمها للحاضرين قائلاً أنها حاصلة على بكالوريوس كلية الإعلام قسم الصحافة دفعة 2007 بتقدير جيد جدا وتعمل صحفية بقسم الحوادث في جريدة الأيام و تحضر للحصول على الماجستير في الصحافة.

صُعقت عندما عرفت سنة تخرجها, إنها تصغرني بعام واحد فقط ومع ذلك تخرجت قبلي وهاهي في طريقها للحصول على الماجستير.

أدركت سبب حسرة أمي المفرطة علي حالي بل وجدت نفسي أردد كلامها, لو كنت تحاملت على نفسي وبذلت قليلا من المجهود لكنت انتهيت من الدراسة وبدأت حياتي العملية.

أخذت نوران تتحدث ببلاغة وثقة عن حوادث القتل والتعذيب والضرب التي وقعت لزملائها الصحفيين و الكتاب والمفكرين لأنهم تجرؤوا وعبروا عن أرائهم التي لا تتماشي مع هوى السلطة الحاكمة وكشفوا عن الحقائق التي يحاول النظام إخفائها عن الشعب.

جلست مستمرا في مكاني أصغي إليها باهتمام, وجدت نفسي أقع تحت سحر الجرس الموسيقي المختبئ في صوتها الرخيم, أخذت استمتع بالترنيمة الجميلة التي كانت تنطلق من حنجرتها كلما فتحت فمها لتتكلم. شعرت أنها أجمل فتاة رأتها عيناي, إنها تملك نوع من الجمال لم أره من قبل, إنه ليس جمال الملامح وتقاسيم الوجه, انه جمال نابع من صدقها في الإيمان بالقضايا التي تتحدث عنها, ونابع من شجاعتها في الدفاع عن ما تؤمن به . تمنيت أن تستمر في الحديث إلى ما لا نهاية ولكنها توقفت فجأة فضجت القاعة بالتصفيق, صفقت مع المصفقين رغم أن سبب تصفيقي كان مختلفا عن سببهم. انتهت الندوة وقام الحاضرون ليصافحوا نوران ويتحدثوا معها. قمت مثلهم وظللت واقفا ورائهم أتطلع إليها في صمت و رهبة. قررت الانصراف في صمت بعد أن طال وقوفي وهي منشغلة في الحديث مع زملائها والحاضرين, هتفت باسمي قبل أن أخرج من القاعة ,اعتذرت لي عن تأخرها في الحديث معي وسألتني:

-إيه رأيك في الندوة ؟

أومأت قائلا :

-استفدت منها اوي, كلامك كان حلو ومؤثر, شكرا ليكي على الدعوة دي
حماسي في شكرها شجعها على أن تدعوني لأن أكون عضوا في حركة" لا لتكميم الأفواه". أبديت لها موافقتي بدون تفكير, أخرجت من حقيبتها استمارة الانضمام إلى الحركة. كتبت بياناتي ورقم هاتفي وطبعت إمضائي علي الاستمارة بسرور وحماس كأنني أوقع على استمارة الاشتراك في رحلة لمدينة الملاهي.

فرحت عندما أعطتني رقم هاتفها حتى أتمكن من التواصل معها حول مواعيد التجمع في المظاهرات والأنشطة والندوات.

قضيت ليلتي وأنا أعيد قراءة الأرقام المكونة لهاتفها عشرات المرات حتى حفظته عن ظهر قلب. راودتني نفسي لكي أتصل بها حتى أطمئن عليها ولكني تراجعت خوفا من إزعاجها في هذا الوقت المتأخر من الليل.

رأيت طيفها يتجول في غرفتي ويناوشني, حاولت الهروب منه بالنوم, أغمضت عيني, سمعت صوتها يداعب أذني, تخليت أنها تشدو لي ترنيمتها المدهشة حتى غفوت.

13-

استيقظت في اليوم التالي لأجد الاشتياق إلى نوران يحتل كل ذرة في قلبي. حاولت أن أقلل من معني هذا الاشتياق, إنه ليس إلا مجرد إعجاب بشجاعتها الفريدة وشخصيتها القوية وثقافتها الواسعة وثقتها العالية بنفسها. كنت أريد أن أسمع صوتها بأي طريقة, قبل أن أتمكن من العثور على سبب يدعوني للاتصال بها رأيت اسمها يضيء شاشة هاتفي, تلقيت اتصالها وأنا أحاول إخفاء لهفتي.

تحدثت معي بانفعال, أخبرتني أنها تنوي التجمع مع أعضاء الحركة بعد ساعة أمام محكمة شمال القاهرة من أجل القيام بوقفة احتجاجية اعتراضًا على حبس النائب هشام السباعي عضو مجلس الشعب. لبيت دعوتها فورا رغم أنني كنت أسمع اسم هشام السباعي لأول مرة في حياتي, أسرعت بالذهاب للمظاهرة وأنا مسرور كأنني على وشك الذهاب في نزهة على النيل, ولكني أدركت أن الأمر ليس نزهة عندما وصلت لمكان المظاهرة. رأيت نوران تقف مع راجح ومجموعة من الرجال والفتيات أمام المحكمة, كانوا يرفعون صورة رجل في منتصف العمر أسمر أفطس الأنف يرتدي نظارة طبية سميكة وترتسم على وجهه المستدير ابتسامة هادئة, أدركت أنه هشام السباعي.

انتبهت نوران لوجودي فأشارت لي حتى أتقدم, مشيت بخطوات مترددة ثم وقفت بجوارها وأخذت منها إحدى صور هشام السباعي, رفع راجح الصورة

إلى أعلى وهتف " اصمد يا سباعي يا بطل ", رددت نوران وباقي أعضاء الحركة الهتاف ورائه بأصوات عالية تشتعل غضبًا, حاولت أن أقلدهم, ضربت قبضة يدي في الهواء و أنا أهتف باسم هشام السباعي, خرج صوتي ضعيفا مقارنة بأصواتهم فشعرت أنني لا أنتمي إليهم.

لم أدرك حجم الخطر المحدق بي إلا عندما رأيت جنود الأمن يقتربون منا حاملين هراوات ضخمة ويهددونا بالضرب والاعتقال إذا لم ننصرف في الحال. تهديداتهم أصابتني بالارتجاف ودفعتني إلى التفكير في الهروب, اضطرت للتراجع عندما رأيت نوران وراجح وباقي المتظاهرين يتجاهلونهم ويرفعون أصواتهم مواصلين الهتاف. ضاقت الدائرة التي كنت أقف فيها مع ازدياد أعداد الجنود الذين حاصروا المظاهرة من كل الجهات, وجدت نفسي عاجزا عن الحركة والتنفس, رأيت الجنود يرفعون هراواتهم ويلقونها بشكل اعتباطي على أجساد المتظاهرين. استولى علي الهلع و أخذت أصيح مستغيثا, جدفت بذراعي بصعوبة بين الأجساد حتى استطعت الانسلال من بينهم. توقف عقلي عن العمل وتحولت قدماي إلى محركين يعملان بوقود الخوف. ناطحت الناس والسيارات حتى استطعت أن أترك مكان المظاهرة, دخلت إلى أحد الشوارع الخلفية ثم دلفت منه إلى شارع جانبي صغير. كنت أخرج من شارع لكي أدخل في شارع آخر بدون أن أفكر لماذا خرجت من هنا ولماذا دخلت هناك.

أصابني الإعياء فتوقفت لكي ألملم شتات أعصابي الممزقة وأُهّدأ من حدة أنفاسي المتقطعة. غول الخوف ظل مسيطرا علي حواسي فلم أستطع التملص

منه حتى بعد أن عدت إلى منزلي وأغلقت على نفسي باب حجرتي. خوفي أجبرني على الاستيقاظ من غفوتي وطرح الأسئلة الصعبة على نفسي.
لماذا عرضت نفسي لهذا الخطر وشاركت في مظاهرة دفاعا عن شخص لا أعرفه ولا يهمني أمره؟, لماذا قبلت أن أكون عضوًا في حركة احتجاجية معارضة رغم أنني لا أفقه شيئًا في السياسة ؟.
حاولت أن أقنع نفسي أنني فعلت ذلك تحت تأثير حديث نوران عن حقوق الإنسان المسلوبة في مصر, ولكن الحقيقة أطلقت ضحكاتها الساخرة مني و أجابت على أسئلتي بكلمة واحدة " الحب ", لا يوجد شيء في الحياة سوى الحب يمكن أن يُفقد الإنسان صوابه ويدفعه للقيام بتصرفات منافية لشخصيته و طبيعته, لقد وقعت في حب نوران ولكني لم أشأ الاعتراف بهذا الحب لأنه لا يحمل أي قدر من المنطق. لماذا يقع إنسان مثلي حياته كلها لعب ولهو في حب نجمة تضيء الكون بعقلها وفكرها وثقافتها ؟, ألا أدرك المسافة الشاسعة التي تفصل بين عالمي الأرضي المحدود وبين عالمها السماوي الواسع؟ ألا أدرك أنني لن أمتلك أبدًا قوى خارقة تعطيني الأجنحة التي تصعد بي لسمائها حتى أنول وصالها وأنعم بضيائها؟.
عقلي كان يدرك الأهوال والمخاطر التي ستواجهني إذا تركت نفسي مستسلمًا لحب نوران, و لكن قلبي المغامر لم يعبأ بتلك الأخطار لأنه يعشق التحدي ولا يجد متعته إلا في خوض الصعاب, ظللت ممزقا بين أوامر عقلي الصارمة وهمسات قلبي المتوسلة.

غروري صور لي أنني قادر على إعادة قلبي إلى عصر ما قبل الحب, وأنني قادر على إجباره على الانصياع إلى طريق العقل المستقيم المؤدي إلى السلامة.

فوجئت باسمها يظهر على شاشة هاتفي, عاد قلبي يخفق بسرعة وغمرتني النشوة . ترددت في الرد على اتصالها خوفًا من أن تلومني على عدم صمودي في المظاهرة ولكن قلبي أمرني بفتح الهاتف. أطلقت نوران تنهيدة الارتياح عندما سمعت صوتي :

- الحمد لله إنك رديت أنا خفت يكون حصل لك حاجة, انت عملت إيه ؟

اللهفة التي فاحت من صوتها كانت مثل قطرات مياه سقت بذرة الحب داخلي فأعادتها إلي الحياة بعد أن كاد عقلي يقضي عليه. فرحتي بلهفتها زادت من خوفي على صورتي أمامها , قلت لها :

- أنا اضطريت أسيب المظاهرة لأن ماما اتصلت وكانت عايزاني في حاجة مهمة

- طب كويس, انت محظوظ لأن البوليس ضربنا بعد لما مشيت بس أنا الحمد لله عرفت أهرب منهم .

هدوئها الشديد في الحديث عن هروبها من البوليس استفزني وفجر علامات الاستفهام في أركان عقلي, وجدت نفسي بدلا من أن أهنئها على سلامتها أسألها بغيظ :

-أنا عايز أعرف هو انتي مش خايفة على نفسك خصوصا بعد اللي حصلك أخر مرة و أهلك موقفهم ايه من اللي بتعمليه ده ؟ مش خايفين عليكي ؟

ثواني الصمت التي سادت بيننا جعلتني أندم على سؤالي, توقعت منها هجوما عنيفًا مشابها للهجوم الذي شنته علي في لقائنا الأول, سارعت في الاعتذار لها على اندفاعي في السؤال, تنهدت ثم قالت لي بصوت هادئ مشوب بالأسى:

- انت عارف يا باسل أنا ليه اتعصبت عليك يوم ما قابلتني ؟ لأنك بتتكلم زي أهلي بالضبط. أهلي حاولوا كتير يمنعوني من تأسيس الحركة ومن الدفاع عن المعارضين وبعد اللي حصلي أخر مرة قررت فعلا إني اسمع كلامهم لكني مقدرتش لأني اكتشفت إن السكوت بيقتل أكتر من الكلام.

انشرخ صوتها فجأة ثم أصدرت آهات عميقة كأنها قادمة من بئر سحيق. أخبرتني أنها لم تتجه إلى معارضة النظام إلا بعد أن عملت في الصحافة وفوجئت برئيس التحرير يمنعها من تغطية أخبار معينة إذا كانت هذه الأخبار تتحدث عن تنكيل النظام بالمعارضين أو عن تعذيب الشرطة للمواطنين في الأقسام ويطلب منها تغطية أخبار أخرى أقل أهمية. بعد فترة اكتشفت أنه يفعل ذلك بناءً على أوامر عُليا, ومع ذلك لم تستطع أن تترك صحيفته لأنه يعطيها مساحة حرية أكبر من الصحف الأخرى ,ولكنها في الوقت نفسه تشعر بالذنب لأنها تخدع القارئ ولا تنقل له كل الحقائق والأخبار. زفرت في ضيق ثم توقفت عن الكلام. طالبتها بمواصلة الحديث فأخبرتني أن هناك أشياء لا يمكن أن تفصح عنها في الهاتف, دعتني للقائها مساء اليوم في أحد المقاهي الواقعة في الزمالك حيث ستجتمع مع زملائها وزميلاتها في الحركة.

-13

ذهبت إلى المقهى الذي وصفته لي نوران في المساء محمولاً على أجنحة الفضول والاشتياق, وجدتها تجلس أمام إحدى الطاولات بجوار راجح ومجموعة من الشباب والفتيات الذين شاركوا في مظاهرة الأمس. ألقيت عليهم السلام فردوا علي بلا اكتراث , إذ كانوا منشغلين بمتابعة حديث مشتعل يدور بين راجح والشاب الجالس أمامه .

كان راجح يقول للشاب بانفعال:

- انا شفتك يا سامي وانت بتسلم على الراجل ده , انت نسيت انه عضو في الحزب الحاكم .

-الظاهر انك مشفتش كويس, الراجل مد لي إيده فاتحرجت منه يدوب سلمت عليه واتكلمت معاه دقيقتين وبعدين سيبته ومشيت.

-طب اتكلمت معاه في إيه بالضبط ؟

- مش من حقك تحقق معايا يا راجح, ومش من حقك تشكك في تصرفاتي ولا في وطنيتي ولا في إخلاصي ليكم, أنا ياما تظاهرت معاكم وياما اتضربت واتقبض عليا أكتر من مرة .

-آه ده كان زمان, بس دلوقتي انت تغيرت وبقيت لطيف ومجامل معاهم ومش بعيد ألاقيك بتدافع عن النظام كمان شوية, رد على سؤالي , كنت بتتكلم معاه في إيه ؟

تطلع سامي إلى نوران وزملائها وزميلاتها بنظرات لائمة ثم سألهم :

- ازاي تسمحوا له إنه يكلمني بالطريقة دي ؟ .

فوجئ أن نظراتهم تطابق نظرة راجح المتشككة, تقلصت عضلات وجهه وبدا عليه الغضب, هب واقفا وصاح فيهم :

-انتم كمان زيه ,بالسهولة دي نسيتوا كل اللي عملته وصدقتوا إني جاسوس ,أنا ندمان على كل دقيقة قضيتها معاكم .انتم تستاهلوا كل اللي بيعمله النظام فيكم .

شعرت بالعطف على سامي عندما رأيته يدير ظهره لهم ويخرج من المقهى مطأطأ الرأس, ولكني لم أشأ أن أبدي تعاطفي معه خوفا أن أكون على خطأ.

سيطر صمت مشبع بالتوتر على الجلسة وانصبت عيون أعضاء الحركة على راجح الذي أخذ يشرب القهوة في هدوء كأنه لم يكن طرفًا في المشاجرة التي اندلعت من دقائق.

جو الجلسة أصابني بالضيق, انتصبت واقفا أعلنت عن رغبتي في الرحيل, ولكن

نوران طلبت مني الانتظار: " فيه حاجة مهمة عايزة أتكلم عنها "

فتحت حقيبتها و أخرجت منها مظروفًا أبيض. فضت المظروف, أخرجت منه ثلاث صور وضعتها على الطاولة, رفعت الصور إلى أعلى لكي تظهرها لنا.

ملت برأسي للأمام وأخذت أحدق في الصور .

رأيت شخصًا مغمض العينين يبدو من لون بشرته المائل للسواد أنه فارق الحياة, يقطع وجهه خطوط حمراء عريضة, وتتناثر على صدره ويديه وذراعيه وقدميه دوائر حمراء وسوداء ضخمة.

عدت بظهري للوراء وأغمضت عيني وأنا انتفض, خُيل إلي أن هذه الصور مأخوذة من فيلم رعب, سرت في بدني رعدة الخوف الممزوجة

بالاشمئزاز بينما ظهرت علامات الغضب والامتعاض على وجوه أعضاء الحركة.

تطلعت نوران إلى الصور بأسى ثم أخبرتنا أن صاحب هذه الصور اسمه مصطفى سعد, طالب في كلية التجارة جامعة عين شمس, تم اعتقاله من أسبوع بالمصادفة بينما كان في طريقه للخروج من الكلية أثناء وقوع مظاهرات ضد الغلاء.

صمتت نوران للحظات ثم أخفضت صوتها وبدا عليها الخوف وهي تقول أن الضباط اتهموا مصطفى بالتخطيط لتلك المظاهرات وعذبوه بالصعق والضرب والحرمان من الطعام ثم أفرجوا عنه بعد أن تدهورت حالته الصحية من فرط التعذيب, قام أهله بنقله إلى المستشفى ولكن الأطباء لم يتمكنوا من إسعافه فتوفى في الحال, ورغم أنهم تقدموا ببلاغ ضد الضباط الذين قاموا بتعذيبه إلا أنهم يخافون أن يضيع حق ابنهم لأنهم أشخاص بسطاء ولا يستطيعون توكيل محامي كبير للدفاع عنه.

بينما كنت استمع إلى نوران لاح في ذهني احتمال أن يؤدي مروري بالمصادفة بجوار مظاهرة إلى القبض علي وتعذيبي حتى الموت فارتجفت خوفا, قلت لنوران: " لازم تكتبي عن اللي حصل للولد ده في الجرنان بتاعك "

هزت رأسها بالنفي وغمغمت:

- أنا مش قلت لك قبل كده إن رئيس التحرير رافض ينشر أي موضوعات عن التعذيب أو انتهاكات حقوق الإنسان!.

- يعني معقول الوحوش اللي عملوا فيه كده مش هيتحاسبوا ؟

تطلعت إلي باستغراب وهتفت :
- إنت مش عايش في البلد دي ولا إيه يا باسل ؟ هو في حد في السلطة بيتحاسب على أي جريمة بيعملها ؟ أنا كل يوم بكتشف حوادث أسوأ من دي ومش بقدر اتكلم عنها.
نعم لم أكن أعيش في هذا البلد, كنت أعيش في عالم صغير هادئ ومريح, لكن نوران أخرجتني من عالمي الجميل وأجبرتني على رؤية العالم الحقيقي بكل قبحه وسواده.
حاولت أن أقدم لها اقتراحا مبتكرا:
- طيب ما انتي ممكن تفضحيهم و تنشري الصور دي على الفيس بوك
أطرقت برأسها في الأرض وهمست بصوت حزين :
- فيه واحد من زملائي كان عامل صفحة شغلتها تفضح النظام وتكشف المستخبي بس اتقبض عليه من كام شهر وأهله مش عارفين عنه أي حاجة, في ناس بتقول انه في معتقل سري, وفي ناس بتقول إنه مات من التعذيب واتدفن في الصحرا.
اختنق صوتها وفرت الدموع من عينيها وهي تقول :
- أنا مش خايفة على نفسي بس خايفة على اللي هيحصل لأهلي لو جرى لي حاجة.
الكآبة التي غشيت الجلسة كانت أكبر من قدرتي على الاحتمال, استأذنت نوران وزملائها وانصرفت عائدا إلى المنزل وأنا أحاول مسح كل ما سمعته وشاهدته في هذه الجلسة من ذاكرتي.

***

كنت أقف في غرفة ضيقة جدرانها مدهونة باللون الأسود يغمرها ضوء أصفر شاحب قادم من مصباح كبير معلق في السقف, كان هناك شابًا غريبًا يجلس أمامي على كرسي صغير, ملابسه ممزقة ويداه مكبلتان بالسلاسل الحديدية. رمقني بنظرات متوسلة وأقسم لي أنه مظلوم وترجاني أن أفك قيوده, تطلعت إليه بنظرات كريهة ثم انفجرت ضاحكا. أخرجت عود كبريت وعلبة السجائر من جيبي, أشعلت سيجارة ثم اقتربت منه على مهل و أطفأتها في وجهه.
اشتعلت النيران على سطح جلده وسرعان ما انطفأت وتحولت إلى رماد. لم أعبأ بصراخه و أنينه و صياح . كررت إشعال السجائر وإطفائها في وجهه حتى احترق وتحول إلى قطعة كبيرة من الفحم. أخذ يهز الكرسي يمينا و يسارا بجسده حتى تمكن من فك قيوده. هرع نحوي وأطبق بيديه فوق عنقي وحاول أن يخنقني. أخذت أصرخ واستغيث بينما اشتدت قبضته فوق عنقي, تناهي إلى سمعي صوتا يهتف باسمي, شعرت بيد حانية تهز جسدي. استيقظت مفزوعًا لأجد أمي تتطلع إلي بهلع وتسألني عن سبب صراخي المتواصل.
كانت هذه أول مرة أرى فيها كابوسا مرعبا بهذا الشك, إنه ليس كابوسا عاديًا. إنه كابوس مؤلم مستقى من واقع أكثر إيلامًا, واقع حاولت الهروب منه بالنوم ولكنه أصر على إزعاجي ومطاردتي حتى في أحلامي.
قررت أن أهرب من هذا الكابوس بطريقة أخرى, لجأت إلى صديقي المفضل " الكمبيوتر " , أخذت أتجول بين صفحات الانترنت وأنا محتار بين الدخول على أحد مواقع " الشات " أم مشاهدة فيلم أمريكي ؟. قررت أن أدخل على موقع يعرض أفلام حصرية مخصصة للمستخدمين في أمريكا فقط , قمت بتشغيل برنامج حماية الخصوصية

"hotspot shield “

, هذا البرنامج يحمي هوية المستخدم ويخفي المكان الذي يتصل منه مما يتيح له تصفح المواقع المحجوبة عن المستخدمين خارج أمريكا. قبل أن أقرر اختيار الفيلم الذي أريد مشاهدته توهجت في عقلي فجأة فكرة غريبة متعلقة بالقصة التي حكتها لي نوران ماذا لو استخدمت نوران برنامج حماية الخصوصية وفتحت صفحة على الفيس بوك ونشرت فيها تفاصيل هذا الحادث وكل الحوادث التي يرفض رئيسها أن ينشرها؟ .

حاولت أن أطرد تلك الفكرة من رأسي لأني لم أكن أريد الرجوع إلى هذا الموضوع المؤلم, ولكن الفكرة ظلت تحوم حول عقلي حتى تمكنت من اقتحامه وسيطرت عليه بالكامل وسلبت مني القدرة على التركيز في أي شيء. الفكرة جيدة ولا توجد عوائق تمنع نوران من تطبيقها بشرط أن تتخذ كل الاحتياطات لكي تُبقي هويتها مستترة باستخدام بريد الكتروني مزيف.

اتصلت بنوران وعرضت عليها الفكرة . لم تصدق أن هناك برنامجًا بإمكانه أن يخفي مكان وهوية المستخدم ويجعل إمكانية تتبعه مستحيلة. أكدت لها أن هذا البرنامج موجود بالفعل وأن استخدامه في منتهي السهولة, عرضت عليها أن أحضره لها فوافقت. بعد ساعة ذهبت للمقهى الذي تقابلنا فيه بالأمس ومعي " فلاشة " عليها نسخة من البرنامج. نقلت البرنامج على الكمبيوتر الخاص بنوران, وشرحت لها كيفية استخدامه وجعلتها تجربه بنفسها. كانت متحمسة لتطبيقه فقامت بإنشاء حساب وهمي لها على الفيس بوك, أنشئت الصفحة وبعد أن ملأت كل البيانات لم يبق أمامها إلا اختيار الاسم. أخبرتني أنها تريد أن تختار اسم يعبر عن هدف الصفحة ويجذب الناس لمتابعتها.

سألتني عن رأيي, فكرت مليا في مضمون الصفحة, إنها صفحة إخبارية ولكنها لا تقدم الأخبار المتداولة في وسائل الإعلام العادية, أضاء اسم " أخبار ممنوعة" في ذهني. عرفت أنها ستوافق على الاسم عندها رأيت ابتسامتها الرقيقة تتلألأ على وجهها.

قامت بكتابة الاسم واختارت صورة الغلاف لفتاة فمها مغلق وموضوع عليه " شريط لاصق ", في خلال دقائق معدودة خرجت صفحة "أخبار ممنوعة " إلى النور.

-14

اتصلت بي نوران بعد أيام قليلة وهي مبتهجة لتخبرني أن الصور التي صدمتني سببت صدمة أكبر للناس بعد أن نشرتها في الصفحة وأثارت جدلا كبيرا بينهم, هذا الجدل أدى إلى انتشار الخبر في العديد من المواقع الالكترونية والمدونات مما دفع وزارة الداخلية إلى الإعلان عن فتح التحقيق مع الضباط الذين قاموا بتعذيب هذا الشاب, كما بشرتني أن عدد متابعي الصفحة بلغ حتى الآن خمسة ألاف شخص وهو رقم قياسي بالنسبة لصفحة جديدة.

لم أصدق أن فكرة عابرة مرت برأسي في صباح كئيب بإمكانها في أيام قليلة أن تتحول إلى كيان ناجح يتفاعل معه آلاف الناس إلا بعد أن دخلت على الصفحة ورأيت نفسي عدد التعليقات وعدد علامات الإعجاب والمشاركات.

غمرتني حالة عارمة من السعادة لم أعرفها من قبل, ازدادت سعادتي عندما طلبت مني نوران أن أشاركها في إدارة الصفحة لأنها لا تجد الوقت لإدارتها بمفردها بسبب انشغالها في عملها في الصحيفة.

صرت أقضي معظم ساعات اليوم أمام الفيس بوك لكي أقوم بحذف التعليقات الخارجة والإعلانات, وأعيد نشر الأخبار والمقالات التي تضعها نوران في أوقات مختلفة من اليوم حتى يتمكن أكبر عدد من الناس من متابعتها.

لم ينتابني الخوف للحظة من أن يتم اعتقالي بسبب الصفحة لأنني كنت اتخذ كل الاحتياطات التي تجعل إمكانية تتبعي ومعرفة هويتي أمرا مستحيلا, أخفيت

أمر إدارتي للصفحة عن أسرتي وأصدقائي, لم أكن أدخل على الانترنت بدون استعمال برنامج حماية الخصوصية, وقبل أن أغلق الكمبيوتر كنت أمسح ملف صفحات الانترنت حتى لا أترك أثرا يمكن تتبعه.

كنت سعيدا بعملي في الصفحة رغم الألم الذي أصاب أصابعي والتيبس الذي أصاب ظهري والالتهابات الذي أصابت عيني, ورغم أن الصفحة سلبت مني حياتي القديمة المريحة وفصلتني عن العالم الخارجي وجعلتني أهمل أصدقائي وحولتني إلى كائن الكتروني, ورغم الرسائل المحملة بالشتائم والاتهامات بالخيانة والتجسس والتوعد بإغلاق الصفحة التي كنت أتلقاها يوميا من مجهولين .

كنت سعيدًا لأنني رأيت بذور مجهودي ومجهود نوران تنبت ثمارا يانعة, رأيت الصفحة تكبر يوما بعد يوم حتى تحولت إلى صوت الأغلبية التي يعتقد النظام أنها أقلية , صوت من سرقت أصواتهم ودمرت حياتهم, صوت كل من يحاول النظام أن يمحيهم من الوجود, صارت صفحة " أخبار ممنوعة " من أشهر الصفحات على الفيس بوك و بلغ عدد متابعيها ربع مليون شخص خلال أقل من سنة .

كنت أشعر بأهمية ما أفعله عندما أقرأ تعليقات الزوار الذين صاروا يعتمدون على الصفحة من أجل الحصول على الأخبار و يوجهون لنا الشكر لأننا نزعنا الستائر السوداء التي وضعها النظام فوق عيونهم لسنوات طويلة و نقلنا لهم الحقيقة التي يحتاجون لمعرفتها. بخلاف كل ذلك كنت سعيد لأن تلك الصفحة كانت بالنسبة لي طائرة سحرية رفعتني من على سطح الأرض, وأوصلتني

إلى السماء التي تقطنها النجمة التي أهواها و جعلتني أقترب منها وأصير رفيقا لها.

لم يكن يمر يوم بدون أن تتبادل معي الحديث على الفيس بوك وتطلب مني أن أعدل خبرا أو أحذف تعليقا أو أغير صورة, كنا أحيانا نلتقي في أحد مقاهي الزمالك لكي نتناقش حول كيفية تطوير الصفحة.

رغم سعادتي بالاقتراب من نوران كنت أشعر أن هناك سورًا عاليًا يفصل بيني وبينها, فرغم أنها كانت تعاملني بلطف بالغ إلا أنها كانت تقصر حديثها معي على العمل و تتجنب الاقتراب من حياتها الشخصية.

كنت أتفهم سبب وجود هذا السور و مع ذلك كنت أتوق بشدة لكي أتخطاه, أردت أن أبوح لها بحبي الذي كان يزداد اتقادًا و توهجًا كلما ابتسمت لي أو شكرتني أو أثنت على مجهودي أو حتى استمعت لي في صمت.

حبي لها كان السر الأكبر الذي لا أريد الاحتفاظ به فالحب لم يُخلق لكي يكون سرا, إنه موجات تنطلق من القلب و ينعدم معني وجودها إذا لم تجد قلب آخر يستقبلها ويتجاوب معها. كان هناك عائقا واحدا ضخما يقف أمام رغبتي في البوح بحبي , الخوف. الخوف أن يرفض قلبها استقبال الموجات الصادرة من قلبي, الخوف ألا تراني جديرا لأحظى بها, الخوف أن تعاقبني على حبي بالنفي الأبدي من حياتها. أدركت أنني لا يمكن أن أتخطي هذا الخوف إلا إذا أزلت كل الفوارق بيني وبينها و لا سبيل لي لإزالة تلك الفوارق إلا إذا قررت أن ُأغير نفسي وأصير إنسانًا آخر, إنسان لا يعيش حياته عبثًا بل يعيش لسبب و هدف, إنسان لا يعشق الكسل ولا يتلذذ بتضييع الوقت, بل يطمح ويعمل ويكافح حتى يكون أفضل وأنفع لنفسه ولمن حوله.

كنت أعلم أن طريق التغيير صعب و شاق, ولكن كان لابد أن أسير فيه إذا أردت أن أزيد من فرصتي في الاقتران بنوران.

أولى خطوات التغيير بدأت من الدراسة, تحاملت على نفسي وذهبت للكلية و حضرت المحاضرات وجاهدت حتى فهمت, ثم أخذت أكرر ما فهمته حتى حفرته على جدران ذاكرتي ودونته في ورقة الإجابة. تدفق نهر الفرحة داخلي عندما رأيت اسمي في كشوف الناجحين و استطعت أن أجتاز عامي الثالث في كلية الحقوق لأول مرة بدون أن أحمل معي أي مواد. أردت أن أشارك فرحتي مع الإنسانة التي دفعتني للسير في طريق النجاح بدون أن تقصد, سارعت في الاتصال بها فوجدتها ترد علي بنبرة فاترة. تراجعت عن إخبارها بنجاحي وسألتها:

-فيه حاجة مضايقاكي يا نوران ؟

-هو انت لسه معرفتش؟

-عرفت إيه ؟

- مش هقدر أقولك, افتح الفيس وانت تعرف وبعدها إبقى قابلني في الكافية بتاعنا.

كنت أعرف أنها تخشي الحديث معي عن الصفحة على الهاتف لأنها تخاف أن يكون هاتفها موضوع تحت المراقبة. تسارعت دقات قلبي وأنا أفتح الكمبيوتر خوفًا من المفاجأة السيئة التي تنتظرني. بعد أن كتبت عنوان الصفحة فوجئت أنها لا تفتح وإنما تعيدني إلى الصفحة الرئيسية للموقع.

-15

السيد / السيدة   مدير صفحة أخبار ممنوعة.

نأسف لإبلاغك أننا قررنا إغلاق صفحتك بسبب التقارير العديدة التي وصلتنا ضد ما تقدمه من أخبار مشكوك في صحتها, وبعد أن قمنا بعمل تحقيقات اكتشفنا أن اشتراكك وهمي وكما تعلم فإن الاشتراكات الوهمية مخالفة لسياسة الموقع. إذا أردت إعادة الصفحة يجب أن تقدم لنا بياناتك الحقيقية .

تقبل اعتذارنا

فريق عمل الفيس

بوك

توقف قلبي عن الخفقان و توقف عقلي عن التفكير و توقف جسدي عن الحركة.

كان من الصعب علي أن أصدق أن كل الأخبار والتقارير والصور والتعليقات و المشاركات تبخرت من الوجود الالكتروني بمجرد كبسة زر كأنها لم تكن, وأن الوقت والجهد الذي بذلته أنا ونوران لمدة عام بأكمله ذهب أدراج الرياح بهذه السهولة.

سارعت بالذهاب إلى المقهى حتى أقابل نوران بينما كان عقلي مثقلاً بعشرات الأسئلة حول حقيقة ما حدث. لماذا لم تقرر إدارة الموقع إغلاق الصفحة إلا اليوم بالتحديد؟, ولماذا لم يكتشف المسئولين عن الموقع أن

اشتراكنا وهمًيا إلا اليوم رغم أن الصفحة ظلت تعمل لمدة عام بدون مشاكل ؟,

وهل الأشخاص الذين أرسلوا لهم التقارير هم أنفسهم الأشخاص الذين كانوا يبعثون لنا رسائل التهديد والوعيد بإغلاق الصفحة ؟, ولكنهم أرسلوا تلك التهديدات من شهور عديدة فلماذا لم ينفذوا تهديداتهم إلا اليوم ؟ .

كنت أنتظر أن تعطيني نوران إجابات تقضي على حيرتي وتهزم خوفي وغضبي و تمنحني الأمل أن الصفحة ستعود كما كانت, ولكني وجدت اليأس مسيطرًا عليها بشكل تام, أخبرتني أنها كانت تتوقع أن تقوم القيادات الأمنية بالتدخل لإغلاق الصفحة من وقت طويل بسبب نجاحها الساحق وسرعة انتشارها بين الشباب, وأنها لا ترى وسيلة لعودة الصفحة لأننا لا نستطيع أن نقدم بياناتنا الحقيقية ولا يمكن أن نجد شخصا على استعداد للمخاطرة بحياته من أجل أن يكون مديرا للصفحة.

رفضت أن أشاركها الاستسلام للأمر الواقع:

- طب ما نفتح صفحة جديدة.

مطت شفتيها قائلة:

- هيقفلوها .

- لو قفلوها نفتح غيرها. إن شاء الله نفتح ميت صفحة بس لازم نستمر .

بدت عليها الدهشة ,يبدو أنها لم تتوقع أن تجد الشاب الهادئ اللامبالي الذي قابلته العام الماضي يشتعل إصرارا و تمردا, قالت لي بصوت مرتجف :

- بس أنا خايفة يكون قفل الصفحة ده معناه إن الأمن عرف أسامينا علشان كده أنا شايفة إننا لازم نختفي شوية غير إني كمان هبقى مشغولة جامد الفترة الجاية .

فجأة تبدلت ملامحها ورأيت ابتسامة خجولة تعلو شفتيها, فتحت حقيبتها وأخرجت منها مغلقًا صغيرًا وردي اللون ثم قدمته لي .

رأيت قلبين صغيرين يتوسطان الغلاف وعندما فتحته وجدت دعوة باسمها وباسم راجح لحضور حفل خطبتهما الذي سيقام في إحدى قاعات القوات المسلحة يوم الجمعة القادم .

انقبض قلبي وانعقد لساني, أخذت أرنو لها في وجوم, رسمت على وجهي شبح ابتسامة بصعوبة وقلت لها " ألف مبروك " ثم استأذنتها في الانصراف متعللا بأنني أشعر بالتعب وأريد العودة إلى المنزل .

همت على وجهي في الشوارع وأنا أشعر بالحزن والضياع, لماذا تحول يوم نجاحي الذي انتظرته طويلاً إلى اليوم الذي خسرت فيه كل شيء ؟. لماذا لم أنتبه إلى معنى جلوس راجح بجوار نوران في كل الاجتماعات وإلى معنى تواجده الدائم معها في كل المظاهرات والندوات؟, لماذا لم أفهم أن النظرات التي يرسلها نحوها كانت تعبيرا عن حبه لها ؟ .

إن فتاة مثل نوران لم ولن تكون أبدا لي لأنها خُلقت لكي تكون مع شخص أكاديمي مثقف مثل راجح ,وليس شخصا فاشلا مثلي لا يستطيع الحصول على الليسانس, حمدت الله أنها أعلنت لي خبر خطبتها قبل أن أتهور و أتورط في الإفصاح عن مشاعري.

قررت أن أستغل إغلاق صفحة " أخبار ممنوعة وقمت بإغلاق صفحة نوران من حياتي تماما لكي لا أجلب لقلبي مزيدًا من الآلام.
فكرت أن أعود للحياة التي كنت أعيشها قبل أن أقابل نوران ولكن هذه الحياة بدت لي شديدة التفاهة, قررت في النهاية ألا أستسلم لشعوري بالضياع وأن أستغل الحافز الذي أعطته لي نوران وأحاول أن أغير حياتي للأفضل ليس من أجل أمي أو نوران أو أي أحد , من أجلي أنا فقط

***

لم تتخيل نوران يوم أن ودعتني في المقهى أنها ستراني بعد أيام قليلة جثة هادمة ملقاة في ثلاجة مستشفى. كانت مقتنعة أن ضباط الأمن تدخلوا لإغلاق الصفحة بعد أن توصلوا إلى هويتي وهويتها, ثم قرروا أن يوقعوا العقاب علي بطريقتهم السادية عن طريق إرسال أحد رجالهم لتعذيبي حتى الموت لكنها لم تفهم كيف تمكنوا من كشف هويتنا رغم أن لا أحد كان يعلم أننا مديري الصفحة إلا أعضاء الحركة فقط ؟, ولماذا اختاروا استهدافي ولم يقتربوا منها حتى الآن رغم أنها كانت صاحبة الصفحة وهي التي كانت تكتب كل الأخبار التي تنشر فيها؟.
طرحت نوران تلك الأسئلة مرارًا وتكرارًا على نفسها وعلى خطيبها راجح , كان راجح ينظر إليها متعجبا ويقول : " باسل اتوفى لأن عمره انتهى مش علشان الصفحة , وانتي عايشة لأن لسه في عمرك بقية , لو كان الأمن عرف إنك صاحبة الصفحة كان زمانهم قبضوا عليكي, شيلي الموضوع ده من دماغك واوعي تقدمي شهادتك للنيابة وإلا هتعرضي نفسك لمخاطر انتي مش قدها ",

لم تستطع نوران الالتزام بنصيحة راجح لمدة طويلة, لم تستطع احتمال العذاب الذي صبه عليها ضميرها بعد أن علمت بنتائج تقرير الطب الشرعي.

اعتقدت أن ضميرها سيرتاح بعد أن اتصلت برائف عبد العزيز وشرحت له ظروف مقتلي وأعطته رقم هاتف منزلي, لم تستطع إبقاء علاقتها بي سرا بعد أن شاهدت ذلك الخبر الذي نشرته عني إحدى الجرائد القومية , استجمعت شجاعتها وذهبت لزيارة أمي, روت لها تفاصيل لقائها بي واشتراكي في حركة لا لتكميم الأفواه ومساعدتي لها في إدارة صفحة أخبار ممنوعة, أخبرتها أنها قدمت شهادتها للنيابة اليوم وقامت بتسجيل شهادتها على فيديو و نشرته على موقع اليوتيوب وكل مواقع التواصل الاجتماعي حتى توصل الحقيقة لكل الناس. بعد أن انتهت نوران من الإدلاء باعترافاتها انتظرت رد فعل أمي بقلق, أخذت أمي ترمقها بحيرة , لم تدر كيف تتعامل معها. هل تشكرها لأنها قامت بفك شفرة اللغز الذي حيرها لأيام طويلة أم توبخها لأنها تأخرت في الخروج للعلن و الإدلاء بشهادتها؟ , هل تنقذها من الغرق في دوامة الأحزان أم تلومها لأنها تسببت في انزلاقي إلى دروب السياسة التي أدت لهلاكي؟.

حسمت أمي حيرتها عندما رأت الدموع تنزلق على وجه نوران, وجدتها تهتف بطريقة هستيرية " : أنا السبب في موت باسل بس, أنا عارفة إن دوري هيجيي قريب"

أخبرتها أنها منذ وفاتي باتت عاجزة عن النوم والعمل والحركة, إنها خائفة من كل شيء, من رنين الهاتف, من رنين جرس الباب, من وجوه الغرباء, من نظرات زملائها, إنها تنتظر لحظة اغتيالها كل ثانية, إنها تحسدني على موتي

لأنها مثل السجين المحكوم عليه بالإعدام يقتله انتظار لحظة وضع رقبته تحت المقصلة بينما أنا غادرت الحياة بالفعل وارتحت من عذاب الانتظار.
فتحت أمي ذراعيها لنوران ثم أخذت تربت على ظهرها بحنو : " انتي مش سبب موت باسل, أرجوكي بلاش تحملي نفسك ذنب مش ذنبك".

***

انتشر فيديو اعترافات نوران بين مستخدمي الانترنت بشكل صاروخي حتى بلغ عدد مشاهديه أكثر من نصف مليون في أيام قليلة, أثارت اعترافاتها عاصفة من الجدل بين الناس فانهالت عليها الدعوات لإجراء لقاءات في جميع وسائل الاعلام.
كانت في كل حوار تصر على التأكيد أن هناك جهة أمنية خططت لاغتيالي بسبب إدارتي لصفحة " أخبار ممنوعة ", كما كانت تصر على المدح في أخلاقي وتبرئتي من الاتهامات التي وجهت لي من بعض وسائل الإعلام بالفشل والانحراف " باسل هاشم أشجع وأطيب إنسان قابلته في حياتي, أنا عمري ما قابلت حد زيه في الأخلاق والأدب والشهامة ".
رغم فرحتي بكلام نوران كنت أعلم أنها لم تكن لتقوله لي لو كنت لا أزال على قيد الحياة.
هذا هو الجانب المشرق من الموت, يغيبك عن أحبابك ولكنه بعد ذلك يحولك إلى قديس في عيونهم.
اعترافات نوران جلبت عليها الشهرة بيد أنها لم تحقق لها الهدف الذي أرادت تحقيقه فلقد أعلن النائب العام عن رفضه إعادة فتح التحقيقات في

وفاتي لأنه رأى أن الاتهامات التي قدمتها نوران مرسلة و لا تحتوي على أي دليل مادي ملموس.

قرار النائب العام أصاب أفراد أسرتي ونوران وكل المتعاطفين مع قضيتي بإحباط شديد فتسرب اليأس إلى نفوسهم و خُيّل إليهم أن قضيتي سيطويها النسيان, لكن صورة واحدة صغيرة غيرت كل شيء.

-16

كان حمادة ابن عنتر حارس العمارة يجلس في الصباح أمام بوابة العمارة يطالع سريعا عناوين الجرائد قبل أن يضعها على عتبات شقق السكان, استوقفته صورة لأحد الرجال في صفحة الحوادث. دقق النظر في ملامح الرجل, الجسد الضخم, الفك الكبير, الجفون المرتخية, القسمات الحادة, النظرة المخيفة, الندبة التي تتوسط الجبين.

داهمه إحساس قوي أنه ألتقي بصاحب هذه الملامح من وقت قريب, لم يتمكن من تحديد أين ومتى إلا عندما قرأ الخبر الذي حمل عنوان " الاعتداء على الناشط السياسي" محمود سليمان ".

تفاصيل الخبر كشفت أن هناك بلطجي يُدعي " سيد عوض الله أبو السباع " و شهرته " سيد مشرط " اعتدى على محمود سليمان بالضرب وكاد أن يقتله لولا أن مجموعة من المارة قاموا بإنقاذه واقتادوا البلطجي إلى القسم.

هرع حمادة إلى الحجرة الصغيرة التي يقيم فيها مع والده وقام بإيقاظه .

تنبهت حواس عنتر ,إعتدل جالسا و قد استولى عليه الهلع نتيجة استيقاظه المفاجئ.

فرد حمادة صفحة الحوادث أمام والده وأشار بأصبعه على صورة البلطجي متسائلا" مش هو ده يا بابا المجرم اللي قتل الأستاذ باسل ؟" .

ارتدي عنتر نظارته الطبية وأخذ يفحص الصورة جيدا ثم انفتح فمه على مصراعيه من الدهشة و هتف " أيوه هو يا بني " .

عرض عنتر وابنه صورة البلطجي على أصحاب المحلات والسكان الذين شاهدوا الجريمة, أومأوا برؤوسهم مؤكدين أنه الجاني. صعد عنتر إلى منزلي مسرعا, وما أن فتح له رامي الباب حتى تهلل وجهه وهتف بانتصار وهو يشير إلى الجريدة " لقينا المجرم ". اقتربت أمي من عنتر وسألته بقلق " فيه إيه ؟", أخبرها أن ابنه عثر على صورة المجرم الذي قتلني بالمصادفة في الجريدة, تناول رامي الجريدة من عنتر ثم قربها من عينيه و أخذ يفحص كل جزء من وجه الرجل حتى خزن ملامحه في ذاكرته , أخذت أمي الجريدة من رامي و أطالت النظر إلى الصورة, تضرج وجهها بحمرة الغضب, نبشت أظافرها في الصورة حتى مزقت الصفحة بأكملها ثم ألقت الجريدة على الأرض وصاحت " بعد إيه ؟"

***

وافقت النيابة على إعادة فتح التحقيقات في مقتلي بعد أن قدم رائف بلاغًا ضد سيد مشرط واتهمه بقتلي بناءً على شهادة عنتر وابنه حمادة وأصحاب المحلات والسكان الذين رأوه يرتكب جريمته في وضح النهار.

استدعي وكيل النيابة سيد مشرط و عرضه على الشهود, أعادوا جميعهم التأكيد على أنه المجرم المنشود فبدأ في استجوابه:

- ليه ضربت باسل هاشم ؟

قطب سيد جبينه وتطلع إلى صورتي الملقاة على مكتب وكيل النيابة فبدت ملامحه أكثر حدة , هز رأسه نفيا وقال لوكيل النيابة بثقة :

- والله العظيم يا باشا أنا أول مرة أشوف الواد ده دلوقتي, إزاي أبقى أنا اللي ضربته ؟

- طب والناس اللي شهدوا إنهم شافوك وانت بتضربه ؟

- كدابين يا باشا .

- طب وإيه اللي هيخليهم كلهم يكدبوا ؟

- لأنهم مش عارفين شكل الراجل اللي ضربه فقالوا يلبسوا لي القضية.

رغم إصرار سيد على إنكار جريمته إلا أن اتفاق الشهود على أنه المجرم جعل النيابة تقرر نقله إلى سجن طره تمهيدًا لمحاكمته.

***

استيقظت أمي مبكرا على رنين هاتفها المحمول. ساورها القلق عندما رأت رقم رائف لأنه لم يعتد الاتصال بها في هذا الوقت المبكر. فتحت الهاتف وقبل أن تلقي عليه تحية الصباح وجدته يصيح " سيد مشرط هرب من السجن ".

شهقت أمي في هلع ثم طلبت منه أن يشرح لها التفاصيل ببطء.

التقط أنفاسه بصعوبة ثم أخبرها أنه بعد أن شاهد الخبر في التليفزيون, ذهب فورا إلى وكيل النيابة الذي أخبره أنه أثناء عملية ترحيل سيد فجر اليوم إلى السجن قام بإطلاق الرصاص على الجنود والضباط الذين كانوا يحرسوه ثم فر هاربًا .

لم يقتنع رائف بتفاصيل القصة التي حكاها له وكيل النيابة, لم يفهم كيف استطاع المتهم أن يحصل على مسدس رغم الإجراءات الأمنية المشددة؟ , وكيف استطاع أن يفك قيوده ويتغلب على الجنود والضباط الذين تولوا الإشراف على نقله وأطلق عليهم الرصاص ثم هرب بهذه السهولة؟ .

توصل رائف إلى الإجابة الحقيقية بعد أن قرأ اليوم تحقيقا في إحدى الصحف المستقلة بعنوان" سيد مشرط البلطجي المفضل للحزب الحاكم ", عرض التحقيق صورًا تجمع سيد مع مجموعة من النواب التابعين للحزب الحاكم في مجلس الشعب, و كشف أن الرجل يعمل من سنوات طويلة بشكل سري لصالح الحزب, ومهمته هي الوقوف في أيام الانتخابات مع مجموعة من صبيانه وضرب أي شخص تسول له نفسه انتخاب المرشحين المستقلين أو المنتمين للأحزاب المعارضة, كما أنه صار في الفترة الأخيرة يظهر في المظاهرات ليساعد الشرطة على فضها بالقوة و يقوم بالاعتداء على المعارضين وأعضاء الحركات الاحتجاجية .

المعلومات الواردة في التحقيق أكدت لرائف أن هروب سيد مشرط تم التخطيط له من قبل مسئولين في الحزب الحاكم أرادوا أن يضربوا عصفورين بحجر, يكافئون سيد على إخلاصه وتفانيه في خدمتهم, و يحمون أنفسهم من انفلات لسانه واعترافه بأسرار خطيرة لا يريدوها أن تظهر إلى العلن.

لم تستطع أمي أن ترد على رائف, لم تجد كلاما مناسبا لتعبر به عن صدمتها الكبرى التي فاقت صدمتها الأولى في تقرير الطب الشرعي. رغم أنها استطاعت أن تحافظ على هدوئها ورباطة جأشها إلا انه استشعر صدمتها فحاول أن يخفف من وقع الخبر عليها, أكد لها أن التحقيق في مقتلي لن يتوقف بهروب المجرم, وأنه تقدم بطلب للنائب العام لانتداب لجنة من كبار الأطباء الشرعيين لفحص ومراجعة تقرير الطب الشرعي في وفاتي, كما أنه ينوي التقدم ببلاغ ضد وزارة الداخلية لاتهامهم بتهريب المتهم, و سيبذل أقصى ما في وسعه لاستجماع الأدلة لإثبات المؤامرة التي تختبئ وراء هروبه.

***

بعد أن أنهت أمي المكالمة مع رائف شعرت بنيران خفية تستعر في كل خلية في جسدها, حاولت أن تصرخ ولكن صوتها خرج ضعيفا مجروحا, أخذت تتجول في الشقة بدون هدف, دخلت المطبخ لتعد لنفسها كوبا من الشاي, وقعت عيناها على مجموعة من الأطباق الزجاجية مرتبة بعناية فوق الرف, سحبتهم بلا وعي ثم ألقتهم على الأرض وهي تلهث ووجهها يزداد احمرارا والعرق يتفصد من رأسها, شعرت براحة غريبة وهي تسمع صوت دوي الأطباق على الأرض وتراهم يتناثرون ويتحولون إلى قطع صغيرة من الزجاج, مالت على الأرض , أخذت تمرر أصابعها فوق تنف الزجاج الحادة التي وخزت جلدها, رأت الدم يسيل من يديها, تأوهت ثم انخرطت في نوبة حادة من البكاء, إنها على وشك أن تفقد صوابها, كيف بإمكانها أن تحافظ على عقلها في هذا العالم المجنون ؟ ,إنه عالم يمشي بالعكس, اليسار فيه هو اليمين واليمين هو اليسار, من يستحق القتل يتمتع بالحياة الكريمة ومن يستحق الحياة يُقتل, والبطل مجرم والمجرم بطل, لذلك من الطبيعي في هذا العالم أن تغيب الحقيقة وتضيع الحقوق ويعم الظلم. الغريب أنها كانت تعي وجود هذه القواعد ولكنها كانت تعتقد أنها لن تُطبق عليها أو على أحد من أسرتها .

هذا ما قالته لنوران التي اتصلت بها لتواسيها فور أن عرفت الخبر , تأثرت نوران بكلام أمي ثم ردت عليها بانفعال :

- حضرتك مش لوحدك أنا غضبانة زيك بالضبط وأنا متأكدة إن في ناس كتير غضبانين زينا, أنا شايفة إننا مش لازم نسكت, لازم ننزل ونعبر عن رأينا في الشارع

همست أمي بنبرة يائسة:

-بس إحنا نزلنا مظاهرة قبل كده وفشلت لأن الناس كانوا قليلين والأمن قبض عليهم

ردت لها نوران بحماس:

-أنا عندي فكرة هتخلي ناس كتيرة تنزل.

-17

انتظرت أمي حتى ذهب مراد إلى عيادته ثم ارتدت عباءتها السوداء و دخلت غرفة نوم رامي, قام رامي بتشغيل الكاميرا الموصولة بالحاسب الخاص به وأخذ يراقبها,

جلست على الكرسي المواجة للكاميرا, تنفست بعمق ثم صوبت بصرها على الضوء الصغير المنبثق من العدسة, حاولت أن تنسى أن ألاف الناس سيشاهدونها بعد قليل حتى تتمكن من تذكر مضمون الرسالة التي تريد إيصالها, كانت تريد أن تكتبها ولكن نوران التي اقترحت عليها فكرة الفيديو اقنعتها بأن تدع قلبها المكلوم يسطر كلمات الرسالة بشكل عفوي حتى تصل إلى قلوب الناس مباشرة . لم تحاول التظاهر بالتماسك بل أطلقت العنان لدموعها وهي تتحدث : "أنا عارفة إنكم غضبتم زيي بعد لما عرفتوا أن المجرم اللي قتل ابني اتهرب من السجن وأنا عايزاكم تنزلوا معايا وتعبروا عن غضبكم يوم الجمعة بعد الصلاة قدام بيوتكم, أنا عارفة إنكم بتخافوا من المظاهرات, بس دي مش مظاهرة, دي وقفة احتجاجية ضد الظلم, ولو رفضتوا إنكم تقفوا ضد الظلم اللي اتعرض له ابني النهاردة بكره أولادكم هيتظلموا ومش هتلاقوا حد يدافع عنهم ".

بعد أن انتهت من الحديث, تطلعت إلى رامي, ابتسم لها مشجعًا و رفع إبهامه إلى أعلى " كويس قوي يا ماما , برافو عليكي ".

ابتسمت بارتباك ثم سألته :

- تفتكر المظاهرة دي ممكن تنجح

رد عليها بحماس:

- أنا متأكد إنها شاء الله هتنجح.

لولا حماس رامي لفكرة نوران لما وافقت أمي على تسجيل هذا الفيديو, كانت هذه الفكرة هي الشيء الوحيد الذي استطاع أن يمتص غضب رامي من هروب المتهم, كان يرى أنها رد الفعل المتاح أمامهم على ما حدث, قد لا تؤدي تلك الوقفة إلى القبض على المتهم وإعادته إلى السجن, وقد لا تغير شيئا في مسار القضية ولكنها بالتأكيد أفضل من الجلوس في المنزل والاستسلام للعجز وقلة الحيلة.

***

فوجئ رامي أن الفيديو الذي سجله لأمي ووضعه على صفحته على الفيس بوك ينتشر كالضوء في الفضاء بين الناس, أخذت الاتصالات تنهال عليه وعلى أمي من الجيران والأقارب والمتعاطفين مع قضيتي, كانت كل الاتصالات تحمل تأييدا للوقفة ووعودا بالمشاركة فيها فشعر بالسرور وازدادت ثقته في نجاح الحدث.

انزعج مراد عندما عرف بالصدفة بأمر هذا الفيديو من أحد الجيران فأخذ يوبخ أمي لأنها قامت بتسجيله بدون علمه :

- هو أنا طرطور في البيت ده ولا إيه ؟

طالبته بالهدوء وحاولت أن تشرح له موقفها :

- أنا سجلته من وراك لأني كنت عارفة إنك مش هتوافق .

دمدم غاضبا:

- طبيعي اني ماوافقش على المهزلة دي , هو انتي محرمتيش بعد المظاهرة اللي فاتت, طب انتي مش خايفة على نفسك طب مش خايفة على ابنك؟. إزاي تخليه يحط الفيديو على صفحته , أكيد دلوقتي الامن بيراقبكم وممكن يقبض عليكم في أي لحظة.
تجرأ رامي لأول مرة على معارضة والده وقال له بثقة :
- إحنا مش خايفين يا بابا , وأنا متأكد إنهم مش هيقبضوا علينا لأنهم خايفين من رد فعل الناس المؤيدين لينا.
تطلع إليه بسخرية :
- بلاش تبقى متهور زي أمك مش عشان كام واحد اتصل بيكم وساندكم يبقى معناها ان عندكم مؤيدي . انتم للأسف بتحرتوا في البحر وأحسن لكم تتراجعوا عن موضوع المظاهرة ده لأنه هيضر بقضية باسل.
ألقى كلام مراد في قلب أمي الرعب وذكرها بالمظاهرة السابقة المشؤومة, خافت ألا تتحول المشاركات و إشارات الإعجاب على مواقع التواصل الاجتماعي إلى أعداد كبيرة من البشر, أو أن تتمكن قوات الأمن من التوصل إلى خطة لإفشال الوقفة , وأن يؤثر فشلها بالسلب على قضيتي ويلقي بها في غياهب النسيان, لكنها كانت تقاوم خوفها عن طريق تذكير نفسها بكلام نوران " معيار نجاح المظاهرات لا يقاس بعدد المشاركين فيها ولكن بإيمانهم بعدالة القضية التي يدافعون عنها وباستمرارهم في المقاومة إلى أخر رمق " .

***

كان صباح يوم الجمعة سابحًا في السكون غارقا في الصمت لا ينذر بأي حركة أو نشاط, تعامدت الشمس في منتصف السماء فخرج رامي ومراد

لأداء صلاة الجمعة في المسجد ثم عادا إلى المنزل بعد نصف ساعة. بعد أن دقت الساعة الواحدة ظهرًا ارتدت أمي فستانها الأسود ونزلت مع رامي الذي كان متحمسا للمشاركة في مظاهرة لأول مرة في حياته ومراد الذي وافق على النزول فقط حتى يحميها من الخطر.

قبل أن يخرج أفراد أسرتي من باب العمارة لمحوا من بعيد العشرات من سكان الحي يرتدون الملابس السوداء ويحملون صوري و يهتفون معا بحرارة وغضب " ليه القاتل مش محبوس , ليه المجرم مش محبوس " " حقك يا باسل لازم يرجع " " باسل شهيد مش كافر " " دم باسل في رقبة النظام " .

عندما رأى الناس أفراد أسرتي يخرجون من العمارة صفقوا وهللوا ترحيبا بهم ثم رفعوا صوري إلى أعلى وبسطوا كفوفهم إلى السماء وأخذوا يتضرعون إلى الله أن يحتسبني شهيدا ويُدخلني جنة الُخلد, وأن ينتقم من المجرم الذي قتلني ومن المجرمين الذين سهلوا عليه طريق الهروب.

الصدق البادي في صوتهم زلزل قلب أمي , فسالت الدموع من عينيها بشكل لا إرادي, لم تدرِ إذا كانت تبكي من الفرحة بأعداد الناس الذين تضامنوا معها وساندوها أم تبكي حزنا على رحيلي أم تبكي لإحساسها بالظلم والعجز عن استرجاع حقي , لفت بكاء أمي أنظار المتظاهرين فتطلعوا إليها بتأثر ثم أشاروا نحوها وهتفوا

" يا أم باسل ما تبكيش اللي قتل ابنك مش هيعيش ". أشرق وجهها بابتسامة قوية هزمت دموعها وأجبرتها على التبخر, أومأت برأسها مؤكدة على هتافات الناس.

تطلعت إلى مراد فوجدت الدموع تترقرق في عينيه , عندما رآها تنظر إليه شعر بالخجل من نفسه و أخذ يعتذر لها عن تشاؤمه ثم احتضن رامي الذي بكى وهو يستمع إلى الهتافات وقد امتزج داخله الشعور بالفخر والذنب, لم يصدق أن باسلاً الذي كان يتعالى عليه ويخجل منه هو نفسه باسل الذي يسمع اسمه الآن يجلجل في الفضاء, ويرى الناس يلقبونه بالبطل وبالشهيد وبالمناضل,.

ظلت أصوات المتظاهرين ترتفع حتى وصلت لعنان السماء ودفعت المزيد من الناس للنزول والمشاركة, وسرعان ما امتلأ الشارع على آخره بالمتظاهرين حتى لم يعد فيه موضعا لقدم.

امتلأ قلب أفراد أسرتي بالفرحة والامتنان عندما دخلوا على الفيسبوك وشاهدوا صورا وفيديوهات نشرتها نوران على صفحتها أظهرت عددا مهولا من البشر من مختلف الأعمار والطبقات يملئون الأحياء والشوارع في مختلف المحافظات والمدن ويهتفون باسمي ويلصقون صور سيد مشرط على الجدران والمباني ويكتبون فوقها عبارة "اقبضوا على هذا المجرم فورا" .

لقد كانت فكرة نوران عبقرية, فنزول الناس أمام بيوتهم وفر عليهم عناء الذهاب إلى أماكن بعيدة, و جعلهم يتفرقون في أماكن مختلفة مما صعب على الأمن مهمة السيطرة عليهم وتفريقهم.

أحدثت المظاهرات ضجة كبيرة في وسائل الإعلام حتى اخترقت حدود الوطن ووصلت أصدائها إلى الخارج, قامت وسائل الإعلام العالمية بتسليط الضوء على قضيتي وأكدت أن هروب المتهم بهذه السهولة أثناء ترحيله للسجن هو أكبر دليل أن مقتلي كان مدبرا من قبل السلطة التي اعتادت على

التنكيل بالمعارضين بأبشع الصور, كما خرجت تصريحات من منظمات حقوق الإنسان العالمية تدين تهريب الشرطة للمتهم وتخاذل النيابة في التحقيق في مقتلي, هذه التصريحات سببت حرجا بالغًا للنظام الذي يحرص دائما على الحفاظ على مظهره الديمقراطي أمام العالم ودفعت النائب العام إلى الإعلان عن موافقته على طلب رائف المحامي بتشكيل لجنة من كبار الأطباء الشرعيين لإعادة فحص تقرير الطب الشرعي في وفاتي, كما أصدرت وزارة الداخلية بيانًا أكدت فيه أن هروب المتهم لم يكن مدبرًا ولكنه جاء نتيجة إهمال الجنود في تفتيشه قبل ترحيله, وأن قوات الأمن تكثف جهودها من أجل البحث عنه وإلقاء القبض عليه في أسرع وقت ممكن.

-18

كانت أمي تجلس في حجرة نومي التي اتخذتها مسكنا دائما لها لتقرأ الحوار الجريء الذي أجرته مع صحيفة " نيوزويك " الأمريكية منذ أيام. صرحت في هذا الحوار أنها لن تيأس أبدا من استرداد حقي رغم شعورها بالإحباط بسبب تهريب المتهم, كما انتقدت تصريحات وزارة الداخلية ووصفتها بأنها تصريحات كاذبة هدفها ذر الرماد في العيون.

تناهي إلى سمعها صوت رنين جرس الباب, بعد دقائق انفتح باب غرفتها ورأت مراد يدخل عليها ليقول لها بصوت متوتر " فيه راجل عايز يقابلك " .

تطلعت إلى الاختلاجات التي كان يموج بها وجهه ثم سألته بقلق:

-يبقى مين الراجل ده ؟

هز رأسه في حيرة :

- مش عايز يقول بس مظهره وطريقته في الكلام حسستني إنه راجل مهم.

بدلت ملابسها على عجل ثم خرجت إلى حجرة الصالون, هب الرجل من مكانه واقفا بمجرد أن رآها, قام بغلق أزرار سترته السوداء, قطب عضلات وجهه لكي يبدو حزينا ثم صافحها قائلا " البقاء لله " .

عندما تأملت مظهره فهمت لماذا قال لها مراد أنه شخص مهم. كان طويل القامة, ,عريض الأكتاف, أنفه مقوس كمنقار الصقر, شاربه معقوف مثل شوارب الباشاوات, اللون الأبيض يطغي على شعره المجعد, ويبدو على

وجهه الخمري الحيوية رغم التجاعيد المتناثرة حول عينيه وفوق جبهته. طلبت أن تتعرف عليه, بدا عليه التوتر وهو يقول لها:

- مش مهم تعرفي أنا مين ولا أنا بشتغل إيه, لكن مهم تعرفي إني جاي من شخص بيحب البلد قوي, والشخص ده بعتني علشان أحذرك إن كلامك مع وسائل الإعلام الأجنبية بيشوه صورة مصر في الخارج وبيدي فرصة للدول الأجنبية إنها تتدخل في شئوننا الداخلية.

امتقع وجهها, ثم ردت عليه بانفعال:

- الشخص اللي انت جاي من طرفه ده لو بيحب البلد فعلا المفروض بدل لما يزعل على صورة مصر في الخارج يزعل لما يلاقي شاب بريء يتقتل ودمه يروح هدر.

تجاهل كلامها ودس يده بهدوء داخل سترته وأخرج منها دفتر شيكات وقلم أزرق جاف. ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء وهو يعطيها الدفتر ويقول لها بهدوء:

- اكتبي أي رقم حضرتك عايزاه وأنا تحت أمرك

تطلعت إلى دفتر الشيكات باستغراب ثم سألته :

- وده مقابل إيه ؟

- مقابل إنك تبطلي كلام في وسائل الإعلام والمحامي بتاعك يتنازل عن القضية اللي رافعها ضد وزارة الداخلية .

جزت على أسنانها ثم ضغطت بأصابعها على دفتر الشيكات, قطعت أوراقه وألقتها في وجه الرجل وهي تصيح:

-قول للراجل اللي بعتك إن كل أموال الدنيا متساويش نقطة من دم ابني.

انتفض الرجل واقفا, تطلع إليها بامتعاض لكنه استطاع المحافظة على هدوئه وهو يرد عليها:

- حضرتك فهمتيني غلط, أنا مطلبتش منك تتنازلي عن القضية الأساسية, أنا عايزك بس تتنازلي عن القضية اللي رفعتيها ضد الداخلية لأن الداخلية عاملة اللي عليها وبتدور على المجرم, أما القضية الأساسية هتفضل شغالة عادي بس إحنا عايزين التحقيقات تمشي بهدوء وعايزين الحكم يطلع بسرعة من غير دوشة وضجة إعلامية.

واصلت صياحها :

- لو طلبك كان في مصلحة القضية مكنتش عرضت عليا فلوس. لو عايزني أسكت وعايز المحامي يتنازل عن القضية رجع المتهم للسجن وخليه يعترف مين اللي أمره يقتل ابني.

زفر الرجل في ضيق ثم جمد عضلات وجهه حتى لا يُبدي إحساسه بالفشل في المهمة التي أوكلت إليه أمامها, هرع خارجا من حجرة الصالون, وفجأة توقف واستدار كأنه نسى شيئًا هامًا ثم قال لأمي بلهجة آمرة:

-انسي اني دخلت بيتك وإلا هتعرضي حياتك وحياة أسرتك للخطر.

دفع الرجل باب الشقة بعنف مما جعل أمي تنتفض من مكانها. صوت ارتطام الباب وصل إلى مسامع مراد فخرج من حجرته , ما أن رأته أمي حتى اقتربت من الأرض وأخذت تلملم أوراق الدفتر الممزقة وتضعها في سلة المهملات بسرعة, اقترب مراد منها وسألها بفضول :" عرفتي الراجل ده بيشتغل إيه ؟".

كانت تود أن تبوح له بحقيقة ما جرى حتى تتخلص من عبء المشاعر الثقيلة التي تكالبت عليها بسبب هذه الزيارة, لكنها اضطرت أن ترسم ابتسامة زائفة على شفتيها وردت عليه بهدوء " :ده مندوب جاي من الحكومة علشان يعزيني "

بدا على ملامحه الشك فسألها :

-طب انتي كنتي بتتخانقي معاه ليه ؟ , أنا كنت سامع صوتك وانتي بتزعقي له

- أبدا أنا مكنتش بتخانق معاه , ده أنا بس انفعلت شوية وأنا بكلمه.

أغمضت عينيها متظاهرة بالتعب ثم تركته غارقا في حيرته وهرعت إلى حجرتها.

انشغلت طوال الليل بالتفكير في وظيفة هذا الرجل الغامض وفي هوية الشخص الذي أرسله إليها. ماذا لو كان الشخص الذي يعمل لحسابه هو نفسه الشخص الذي أرسل سيد مشرط ليقتلني ؟, وه الذي تسبب في صدور تقرير الطب الشرعي الكاذب ؟, وهو الذي منع النيابة من إعادة فتح التحقيقات في مقتلي, وهو الذي دبر خطة هروب سيد من السجن ؟.

لكن من هو الشخص الذي يملك ما يكفي من المال والنفوذ والسلطة حتى يتحكم في حياة الناس بهذا الشكل ؟, ربما إنه ليس شخصا واحدا, ربما إنهم مجموعة من الأشخاص المهمين الذين يتحكمون في دفة البلاد وفي مصائر العباد من وراء الستار.

إن صحت شكوكها فإن سيد مشرط لا يستحق منها كل هذه الكراهية لأنه لم يكن أكثر من مجرد أداة لتنفيذ إرادة هؤلاء الأشخاص.

-19

كانت أمي تجلس بمفردها في حجرة المعيشة أمام التليفزيون في المساء تقلب بين القنوات بحثا عن برنامج جيد لتشاهده, توقفت أمام برنامج حواري في إحدى القنوات الحكومية عندما رأت مقدم البرنامج يتحدث عن قضيتي ويعلن أنه سيستضيف شاهدا جديدا مهما في القضية . سقط "الريموت كنترول " من يدها عندما عرفت من يكون الضيف. أخذت تحدق في شاشة التليفزيون حتى تتأكد أن هذا الرجل البدين صاحب الحاجبين الكثيفين والشعر الفضي الناعم هو عمي المحاسب عاطف عبد المنعم.

اتخذ المذيع لهجة المحقق وهو يحاور عمي :

-معلش يا أستاذ عاطف أنا هطلب منك ترجع بذاكرتك لليوم اللي ابن أخوك أتوفى فيه ,ياريت حضرتك تحكي لنا إيه اللي حصل في اليوم ده بالتفصيل.

قطب عمي عاطف جبينه وشرح للرجل بصوت حزين أنه كان خارج منزله الذي يقع أمام منزلي مباشرة, وفي طريق عودته اصطدم برجل عملاق يركض في الشارع ثم رأى عددا كبيرا من الناس يقفون مجتمعين في دائرة, عندما اقترب منهم رآني ممددًا على الأرض في حالة يُرثى لها ووجهي مغطي بالدماء .

توقف عمي عن الكلام وأطرق برأسه ثم فرك عينيه حتى يزيل منها الدموع العالقة داخلها. بدت الشفقة على وجه المذيع وقال لعمي:

-إحنا أسفين إننا قلبنا عليك المواجع .

رد عليه عمي بصوت مبحوح:

- حضرتك متعرفش موت باسل أثر في نفسي قد إيه ,أنا لو كنت رجعت خمس دقائق بدري كان زماني لحقت أنقذه من الراجل ده .

ألتقط المذيع أخر كلمات تفوه بها عمي وسأله :

- الراجل ده ؟ ممكن أعرف هل الراجل اللي حضرتك شفته بيجري في الشارع هو البلطجي سيد مشرط؟.

جال عمي ببصره في أرجاء الاستديو وبدا عليه التفكير ثم رد على المذيع بصوت مرتجف:

- لا الراجل اللي أنا شفته كان أضخم بكتير من سيد مشرط وكان أسمر وكان فيه حسنة كبيرة على خده الشمال, وأنا قلت الكلام ده في النيابة النهاردة قبل لما أطلع مع حضرتك .

- طب إيه اللي خلاك تتأخر في الإدلاء بشهادتك للنيابة ؟

- أولا لأني كنت مصدوم من وفاة باسل, ثانيا لأني كنت خايف أروح للنيابة لكني ندمان إني تأخرت في تقديم شهادتي لأني عارف إن كتمان الشهادة أثم كبير .

أومأ المذيع رأسه بالموافقة على كلام عمي ثم سأله :

- طيب إيه رأيك في الاتهامات الموجهة للأمن بأنهم بعتوا الراجل ده علشان يقتله لأنه كان بيدير صفحة معارضة على الفيس بوك؟.

هز رأسه بالنفي قائلا :

- باسل كان بيعتبرني في مكان المرحوم أبوه ومكانش بيخبي عني أي حاجة وأنا عارف كويس إنه مكانش له في السياسة. أنا أعتقد إن الراجل اللي اتسبب في موت باسل كان عايز يسرقه ولما باسل قاومه ضربه لغاية لما قتله.

قضى عمي بقية الحوار وهو يروي للمذيع الذكريات العديدة التي جمعتني به في طفولتي. أخبره أنه كثيرا ما ساعدني في مذاكرة دروسي, وأنه الذي علمني القيادة وأنه الذي نصحني بالالتحاق بكلية الحقوق .

الذكريات التي رواها عمي عني كانت رائعة ومؤثرة لدرجة أنني تمنيت لو أنها حدثت بالفعل , لكن الحقيقة أن جميع الذكريات التي جمعتني بعمي انمحت من عقلي لأنها حدثت منذ زمن بعيد جدا في طفولتي المبكرة قبل وفاة والدي باستثناء ذكرى واحدة ظلت عالقة بذهني طوال حياتي.

جاء عمي لزيارتنا مع جدي وجدتي مع زواج أمي من مراد بعشرة أيام. كنت مسرورًا بزيارتهم, كنت أريد أن أجلس معهم لولا أن أمي أمرتني بالدخول إلى غرفتي.

سمعت صوت عمي وجدتي وجدي يرتفع ويتشابك ويتداخل مع صوت أمي, فشلت في استخراج جملة مفيدة من غابة الأصوات التي أثارت خوفي وأشعرتني بالخطر.

بعد دقائق دخلت أمي علي الحجرة وأغلقت الباب, اقتربت مني وأحاطت وجهي بكفيها , رأيت الدموع تتساقط من عينيها, سألتها عن سبب بكائها, طوقتني بذراعيها وهمست في أذني قائلة :

- جدك وجدتك وعمك عايزين ياخدوك تعيش معاهم لأنهم فاكرين إنك متضايق من وجود عمو مراد معانا في البيت.

قلت لها بتلقائية :

- أنا فعلا مش بحب عمو مراد

- بس هو بيحبك جدا يا باسل غير إنك لو وافقت تروح معاهم مش هشوفك تاني وأنا مش عايزة أبعد عنك أبدًا.

انتابني الفزع عندما تخيلت أنني قد لا أرى أمي مجددًا, تشبثت بفستانها وهتفت :

- وأنا كمان يا ماما مش عايز أبعد عنك أبدا.

تنهدت وهي تقول :

- خلاص, يبقى لازم تطلع معايا دلوقتي وتقول لهم إنك مبسوط مع عمو مراد ومش عايز تسيب البيت.

تلعثمت وأنا أخبر جدي وجدتي وعمي أنني أحب زوج أمي وأرحب ببقائه معنا في المنزل, كانت هذه هي أول أكذوبة أتفوه بها في حياتي لذلك بدت غير مقنعة لعمي الذي قال لي:

- أكيد أمك اللي حفظتك الكلام ده , مش كده ؟

تطلع إلى أمي بنظرة عدوانية وقال لها :

- انتي علمتي الولد الكدب كمان, إحنا لازم ناخده منك قبل لما تبوظيه.

استولى علي الذعر, خشيت أن ينفذ عمي تهديده فأسرعت بالدفاع عن نفسي وعن أمي:

- محدش طلب مني أقول الكلام ده. أنا بحب عمو مراد ومش ممكن أسيبه ولا أسيب ماما.

كان ردي أشبه بصفعة قوية هوت على وجوه أسرة أبي فأشعرتهم بالإهانة والانهزام أمام أمي.

تطلع جدي إلي بغيظ و صاح :" خلي أمك تنفعك ولو جوزها ضربك متبقاش تشتكي لنا ".

غادر جدي وجدتي وعمي المنزل ولم يدخلوه مجددا بعد هذا اليوم.

قرروا مقاطعتي عقابا لي على تمسكي بالبقاء مع أمي وقبولي بزوجها.

توفيت جدتي بعد شهور و لحق جدي بها بعد عام ثم تزوج عمي في شقتهم التي تقع في العمارة المواجهة لنا. كنت أقابل عمي أحيانا بالمصادفة في الشارع مع ولديه عمر وسامر, كان يصافحني وعلى وجهه ابتسامة باهتة ويسألني عن أحوالي بسرعة كأنه يطبع توقعيه على أوراق رسمية فأجيبه بعبارات مختصرة مكررة أنني بخير وأن كل شيء على ما يرام. أحيانا كان يدعوني لزيارته من باب المجاملة فأشكره وأعده بالمجيء قريبا ثم أودعه ويذهب كل منا في طريقه.

لم أفكر يوما في زيارته أو التعرف على ولديه أو طلب أي نصيحة منه أو البوح له بمشاكلي لأنني كنت أراه مجرد جار يجمعني به شارع واحد .

في اللحظات التي كنت أتعرض فيها للضرب كان عمي يشاهد إحدى مباريات كرة القدم في منزله, قطع عليه جرس الشقة متعة المشاهدة.

فتح الباب ليجد حارس عمارته يقف أمامه , قال له وهو يلهث:

-الحق يا عاطف بيه, باسل ابن اخوك في واحد هاريه ضرب في الشارع, لازم تلحقه قبل لما يموته.

رد عليه عمي متأففا:

-اومال فين أمه وجوزها ليه منزلوش يلحقوه ؟

- مسافرين في المصيف, أرجوك يا عاطف بيه انزل معايا بسرعة مفيش وقت .

بدا عليه التردد ثم قال:

- وأنا مالي , أنا معرفش احجز في خناقات

حاول الرجل أن يوضح له حقيقة الموقف:

- دي مش خناقة يا عاطف بيه, دي علقة موت

هز كتفيه باستهانة وتمتم:

-أكيد باسل عمل حاجة غلط علشان الراجل ده يضربه.

- لا والله معملش حاجة, لازم تلحقه بسرعة يا عاطف بيه , ده ابن اخوك برضه.

أحس بالحرج من الرجل, عقد حاجبيه متظاهرا بالاهتمام وقال له :

- طيب انزل وأنا هحصلك .

أغلق باب الشقة وعاد لحجرته , حاول أن يستكمل مشاهدة المباراة ولكن كلام حارس العمارة ظل يتردد في ذهنه ويوخز ضميره, قام من مجلسه وتوجه ناحية الشباك, أطل برأسه منه فرأى عددا كبيرًا من الناس يقفون في منتصف الشارع ويهزون رؤوسهم ويتبادلون الحديث بأصوات مرتفعة غاضبة , تناهى إلى سمعه كلمة بوليس وإسعاف فبدأ يدرك خطورة الموقف. أغلق التليفزيون وغير ملابسه على عجل ثم نزل إلى الشارع. حشر نفسه بين الناس وتطلع إلى جسدي المنكمش ووجهي المشوه المغطي بالدماء. قفزت عيناه من مقلتيهما وداهمه ألم قوي بعد أن أدرك أن الدماء المتفصدة من هذا

الجسد هي نفسها الدماء التي تجري في عروقه. اقشعر بدنه وهو يستمع لحديث الناس عن الضرب الوحشي التي تلقيته.

أمسك بهاتفه المحمول وقال لهم :

- أنا لازم أطلب له الإسعاف وأبلغ البوليس بسرعة .

تطلع إليه حارس عمارته بنظرات لائمة وقال له :

- مفيش داعي تتعب نفسك يا عاطف بيه إحنا عملنا الواجب خلاص .

امتقع وجهه, تصلب في مكانه و طأطأ رأسه في الأرض, قرر أن يعوض عن تأخره في النزول بأن يرافقني في سيارة الإسعاف. أقنع نفسه أن حالتي ليست خطيرة, وهذا ما جعله يصاب بصدمة عنيفة بعد أن أبلغه الطبيب بوفاتي.

عندما قابل أمي في الشارع اضطر أن يخبرها أنه عاد إلى منزله بعد هروب المجرم حتى لا تطلب منه الذهاب إلى النيابة أو تلومه على عدم تدخله لإنقاذي .

اعتقدت أمي أن الدموع التي ذرفها علي عمي صادقة , لذلك استولى عليها الذهول وهي تشاهده يتحدث في التليفزيون عني بكل وقاحة, أخذت تفكر في معنى وتوقيت ظهوره في الإعلام وتقديمه لشهادته في النيابة, تحول ذهولها إلى إعصار عنيف من الغضب, هذا الإعصار قادها إلى الذهاب إلى منزله الذي لم تدخله منذ خمس عشرة سنة.

-20

ضغطت أمي على جرس شقة عمي عاطف بضربات متتابعة, انفتح الباب ببطء ثم أطل عمي برأسه, ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول لها " أهلا وسهلا "

ابتسامته زادتها غضًبا, ردت عليه مزمجرة :

- أنا مش جاية علشان أزورك . أنا جاية بس علشان أسألك قبضت كام ؟

- قبضت كام ؟؟؟ انتي بتتكلمي عن إيه بالضبط ؟

- بلاش استعباط, أنا عارفة كل حاجة والراجل إياه زارني قبل لما يزورك . قولي دفعلك كام علشان تروح تشهد زور .

تضرج وجهه ثم رد عليها زاعقا :

- شهادتي مش زور, أنا شهدت باللي شفته لأني روحت مع باسل المستشفى لما انتي كنتي بتصيفي مع جوزك وابنك يا هانم .

-بلاش تغير الموضوع. انت كداب ولو كانت شهادتك حقيقية كنت قولتها من الأول . انت مش خايف إن الفلوس الحرام اللي اخدتها دي تدخل عليك وعلى ولادك بالخراب ؟

- اخرسي أنا مش ممكن ادخل بيتي مليم حرام, أنا قلت الحقيقة ولو مش عايزة تصدقيني روحي اخبطي راسك في أعرض حيطة.

صفع باب شقته في وجهها , فتح جيرانه أبواب منازلهم وأخذوا ينظرون لها وعلى وجوههم علامات الفضول والاستفهام. عادت أمي إلى المنزل وهي

تشعر أنها أضاعت وقتها في هذه الزيارة, كم هي ساذجة , كيف تصورت أنها قادرة على إجبار عمي على الاعتراف بالحقيقة عن طريق تخويفه وتذكيره بالله ؟.

رغم أن رائف أكد لها أن شهادة عمي لن تؤثر سلبًا على القضية, وأنه سيتمكن من دحضها بسهولة لأنها جاءت متأخرة كما أنها متناقضة مع شهادات باقي شهود العيان إلا أنها لم تستطع منع الخوف والقلق من مهاجمتها.

كانت واثقة أن الرجل الغامض لوح لعمي بدفتر شيكاته حتى يقدم هذه الشهادة, هذا الرجل لا يمكن أن يفعل ذلك إلا إذا كان متأكدا أن تلك الشهادة ستضر بالقضية وربما تنسفها تماما.

اعتقدت أمي أن الفرصة أتيحت لها لكي تفند شهادة عمي وتكشف حقيقته أمام الناس عندما اتصل بها أحد المعدين في قناة الأهرام الفضائية ودعاها للظهور على الهواء مباشرة في برنامج " الكلمة للشعب " الذي يقدمه الإعلامي الشهير طارق القصاص.

في مساء اليوم التالي ذهبت لاستديو قناة الأهرام , جلست ترتب أفكارها حتى بدأت الحلقة, رحب بها طارق القصاص ثم سألها عن رأيها في الشهادة المثيرة للجدل التي قدمها عمي عاطف.

سؤاله دفعها إلى إطلاق شحنة الغضب المعبئة في قلبها. أخبرته أن هذا الرجل كاذب وأنه عمي بالاسم فقط, لكن لا توجد أي صلة تربط بيني وبينه على الإطلاق لأنه انسحب من حياتي بعد وفاة أبي, ولقد اخترع كل

الذكريات التي رواها في التليفزيون لأنه على ما يبدو يملك موهبة فذة في التمثيل وفي تأليف القصص.

تطلع طارق القصاص إليها باستغراب وسألها :

- طيب تفتكري إيه اللي يخلي الأستاذ عاطف يشهد زور ؟

ردت عليه بدون تفكير :

-الفلوس طبعا

لمعت عيناه ثم سألها:

- ومين اللي دفع له الفلوس دي ؟

دوى صوت الرجل الغامض في رأس أمي, امتقع وجهها و أدركت أنها تسرعت في الرد, أخذت تتطلع إلى أرضية الاستديو وهي تفكر في إجابة مناسبة ثم تمتمت :

- الناس اللي هربوا سيد مشرط.

- وحضرتك تعرفي مين هما الناس دول ؟

بدا عليها الاضطراب وهي تقول له:

- مش مهم مين هما, المهم إن عاطف عبد المنعم كداب و ميستحقش إنه يكون عم باسل .

***

اعتقدت أمي أنها ستشعر بالارتياح بعد أن تكشف حقيقة عمي وتنفد أكاذيبه أمام الرأي العام, لكنها خرجت من البرنامج وهي تشعر بالخوف من رد فعل الرجل الغامض, أحست أنه شاهد البرنامج وانزعج عندما ذكرته بشكل غير مباشر.

اتضح أن خوفها كان في محله, ففي اليوم التالي ظهر طارق القصاص في برنامجه ليخبر المشاهدين أن إدارة قناة الأهرام تلقت بالأمس اتصالا من عمي, وأنه أبدى اعتراضه على تصريحات أمي في البرنامج وطلب منهم أن يتيحوا له الفرصة للدفاع عن نفسه, لذلك قررت إدارة القناة أن تستضيفه في البرنامج وتعطيه حق الرد على الاتهامات التي وجهتها أمي إليه .

عرض طارق القصاص على المشاهدين مقطعا صغيرًا من الحلقة التي ظهرت فيها أمي وأخذت تتهم عمي بتلقي أموال مقابل الإدلاء بشهادته, وبعد انتهى من عرض المقطع سأله" إيه رأيك في الكلام ده ؟ "

احمر وجهه غضبا وهو يصيح :

-هي بتقول إني اخدت فلوس علشان أشهد ولما حضرتك سألتها مين اللي اداني الفلوس معرفتش تجاوب لأنها كدابة ومفترية.

طالبه طارق القصاص بالهدوء ثم قال له :

- أنا مستغرب من العداوة الشديدة اللي بينكم , المفروض إنكم عيلة واحدة .

زم شفتيه قائلا:

-العداوة من ناحيتها مش من ناحيتي, هي اللي بتشوه سمعتي وبتفتري عليا رغم إنها قصرت كتير في حق باسل, حضرتك تعرف إنها تجوزت بعد وفاة أخويا بسنة واحدة وهي و جوزها كانوا بيعاملوا باسل أسوأ معاملة غير إنهم استولوا على كل الفلوس اللي ورثها عن المرحوم أبوه وحطوها في جيبهم, وفي وقت لما كان باسل بين الحياة والموت في المستشفى كانت سوسن هانم في المصيف مع جوزها وابنها, ودلوقتي جاية تعيط بعد فوات الأوان وتمثل دور الأم الحزينة لأنها غاوية شهرة وأضواء.

اشتعلت نيران الغضب في صدر أمي وهي تشاهد عمي يرغي ويزبد في التليفزيون, تمنت أن تخترق الشاشة لتجد نفسها في الاستديو أمامه و تطبق على حنجرته التي يستعملها في إنتاج أكاذيبه الرخيصة, ما زاد من غضبها أنها وجدت طارق القصاص الذي كان متعاطفا معها بالأمس يبدي تعاطفا أكبر مع عمي اليوم.

كانت تريد الاتصال بمعد البرنامج حتى تعاتبه على استضافته لعمي, قبل أن تضغط على رقمه رن هاتفها رأت رقم المعد الذي يعمل في قناة المصريين والذي سجل معها أول حوار بعد وفاتي .

ألقى عليها التحية وقال لها بانفعال : " أنا كنت عايز أطمن على حضرتك, أصلي زعلت لما شفت الحوار اللي عمله عم باسل مع برنامج " الكلمة للشعب " النهاردة , أنا مصدق حضرتك ومش مصدق كلام الراجل ده خالص ولو حضرتك عايزه تردي عليه ممكن تشرفينا بكره وتطلعي مع الأستاذة سالي سالم".

وافقت أمي على عرض المعد فورا و بعد يوم واحد ذهبت لاستديو قناة المصريين لتظهر للمرة الثانية مع الإعلامية" سالي سالم" في برنامج " الحدث المصري ".

أخبرتها أنها تزوجت من الدكتور مراد لأنها وجدتني في حاجة لمن يعوضني عن فقدان أبي ويساعدها في تربيتي, وأقسمت لها أنه لم يأخذ جنيها واحدا من ميراثي لأنه ميسور الحال ولديه ما يكفيه من أموال.

ظهور أمي في هذا البرنامج أدى إلى ظهور عمي في برنامج آخر في قناة المصريين في الأسبوع التالي لكي يدافع عن نفسه, وسرعان ما وجدت أمي

نفسها تنزلق إلى حرب إعلامية مع عمي, وصارت تتنافس معه في الظهور على شاشات الفضائيات حتى تصد هجومه عليها وتشن عليه هجومًا مضادًا.

كان مراد يكره عمي منذ أن جاء إلى المنزل وأبدى اعتراضه على زواجهما, وقد تضاعفت كراهيته له بعد أن شوه سمعته و زج به في معركة لا ناقة له فيها ولا جمل , لذلك شجع أمي على الاستمرار في الظهور في الفضائيات خوض المعركة ضد عمي بلا هوادة لعلها تستطيع تبرئة اسمها واسمه من اتهاماته الباطلة.

أما رامي فكان يريد أن تنتهي تلك المعركة بسرعة لأنه كان يراها سخيفة و مفتعلة, كان يتلوى ألما وحزنا وهو يرى عمي يلصق تهما كاذبة بوالديه, و يشاهد أمي التي عهدها هادئة لطيفة تتحول إلى سيدة غاضبة تصرخ طوال الوقت في التليفزيون.

الغريب أن الظروف أجبرته أن يحذو حذوها وينزلق إلى أرض المعركة في كليته.

كان رامي يذهب إلى الكلية لتحصيل العلم فقط كان يفضل الجلوس بمفرده دائما, لم يكن يختلط بزملائه ولم يكن يتحدث معهم إلا للضرورة, كان يشعر أن حزنه مرض معدٍ لا يريده أن ينتقل للآخرين.

في أحد الأيام كان يجلس في المدرج في انتظار بدء المحاضرات, وكان هناك مجموعة من زملائه يجلسون ورائه ويتبادلون الحديث بصوت مرتفع, سمع أحدهم يقول :" دول وجعوا دماغنا بموضوع باسل هاشم وأمه وعمه".

تدافعت الدماء إلى رأسه وتسارعت أنفاسه, ولكنه استطاع أن يتمالك أعصابه وقرر أن يبقى في مكانه و يستمع إلى الحوار في صمت.

قال أحد زملائه : " أنا مش عارف هما ليه لسه مهتمين بالولد ده وبيقولوا عليه شهيد " , رد عليه الآخر :" شهيد الفيس بوك ", انفجروا جميعا ضاحكين فاخترقت ضحكاتهم قلب رامي كأنها أشواك حادة, انتفض من كرسيه وأدار رأسه نحوهم ثم تطلع إليهم بغضب وصاح:

- اخرسوا , اللي انتم بتتكلموا عليه ده يبقى أخويا.

أخذوا يحدقون له في صمت وذهول, أشار إليه أحدهم وقال له متعجبا :

- معقول أخوك أنت؟

- ايوه أخويا وهو شهيد غصبا عنكم وضفره برقبتكم .

نظر إليه زميله بشفقة بينما رمقه الولد الذي كان يجلس بجواره بازدراء وقال له :

- أخوك مش شهيد, أخوك يستاهل اللي جرى له لأنه عمل صفحة على الفيس عشان يشوه صورة بلده .

أحس رامي أن رأسه تتحول إلى صفيح ساخن, بلا وعي كور قبضة يده وسدد لكمات سريعة إلى وجه الولد الذي سخر مني, تأوه الولد ثم قام ليصفع رامي على وجهه, كاد رامي أن يوجه له لكمات أخرى لولا أن باقي الطلبة تدخلوا وقاموا بالفصل بينهما .

ترك رامي المدرج وعاد إلى المنزل وهو يشعر بالانتصار لأنه دافع عني و رد لي اعتباري, لكنه اكتشف أن انتصاره كان مؤقتا عندما أن دخل على

مواقع التواصل الاجتماعي في نفس اليوم , وفوجئ بسيل عارم من التعليقات والمنشورات تهاجمني وتهاجم أمي

" دي ست أنانية إزاي تدخل راجل غريب على ابنها وبعدين دلوقتي قاعدة تعيط " بيقولوا انها بتقبض من بره عشان تهاجم مصر " , " بيقولوا انها بتاخد عشر الاف جنية على الحلقة " " بيقولوا إن معاها جنسية أمريكية وإن ابنها كان شغال جاسوس تبع المخابرات " , بيقولوا , بيقولوا , بيقولوا "

كان يتمنى أن يعرف هوية الناس الذين يملكون الوقت والطاقة لاختراع كل هذه الشائعات حتى يقتلهم جميعا ولأنه يعلم أن التوصل لهويتهم أمر مستحيل, قرر أن يكرس وقته في الرد على الشائعات على صفحته ولكنه سرعان ما اكتشف أنها مثل الحشرات بعد أن يقتلها تترك ورائها بيضًا كثيرا, وسرعان ما يفقس هذا البيض ويتكاثر ويتحول إلى شائعات جديدة أقوى وأعنف.

الشائعات المنتشرة ضدي وضد أمي كلها كاذبة لكنها لم تأت من فراغ, فظهور أمي المفرط في الفضائيات أساء إليها وأقنع كثير من الناس بصحة اتهامات عمي لها بحب الشهرة والأضواء, ولقد لاحظت نوران هذا الأمر ونبهتها أن وسائل الإعلام تتعمد إشعال الحرب بينها وبين عمي حتى تشوه صورتها وتشتت الناس وتشغلهم عن متابعة قضيتي .

لم تقتنع أمي بكلام نوران ولم تدرك حجم الفخ الذي وقعت فيه إلا بعد أن حدثت تطورات خطيرة في قضيتي, إذ أصدرت اللجنة المكونة من كبار الأطباء الشرعيين تقريرها الذي أظهر أنني لم انتحر بل توفيت نتيجة إصابتي بنزيف حاد في المخ بعد تعرضي للضرب المبرح على رأسي.

المفاجأة أن التقرير لم يُحدث أي رد فعل من الناس لأنه لم يحظٍ بأي تغطية من وسائل الإعلام التي تجاهلت الخبر تماما وركزت اهتمامها على انتخابات مجلس الشعب المرتقبة.

-21

كانت أمي على يقين تام أن الرجل الغامض يقف وراء المؤامرة التي صنعها عمي, وأنه دفعه للإدلاء بشهادته وإفساد قضيتي بعد أن أعطاه رشوة مالية كبيرة, لكن الحقيقة أن عمي كان صادقا, إنه لم يحصل على جنية واحد مقابل شهادته رغم أنه قابل الرجل الغامض بالفعل.

بعد أن غادر الرجل منزلي بأيام قليلة توجه إلى منزل عمي .

أخذ عمي يتفرس ملامحه, شعر أنه رآه من قبل, سأله عن هويته, كرر الرجل نفس الكلام الذي قاله لأمي, إنه يعمل عند شخص يحب البلد بشدة, و هذا الشخص منزعج من حديث أمي عن قضيتي في وسائل الإعلام الأجنبية لأن كلامها يؤدي إلى تشويه صورة مصر في الخارج. كان عمي يتابع قضيتي من كثب, وكان مندهشًا من الاهتمام والتعاطف الكبير الذي يبديه الناس معي, و من جرأة أمي على مهاجمة النظام في وسائل الإعلام الأجنبية. اعتقد أن هذا الرجل يريده أن يقنعها بالتوقف عن الحديث عن قضيتي لذلك سارع بالاعتذار له قائلا :

- حضرتك ممكن تكلمها بنفسك لأني مليش أي علاقة بيها.

ابتسم الرجل الغامض ثم قال له بهدوء:

- أنا عارف إن علاقتك بيها مقطوعة وعارف كمان إنك بتكرهها من ساعة ما اتجوزت بعد وفاة أبو باسل.

نظر إليه باستغراب وسأله :

-حضرتك إزاي عرفت كل المعلومات دي ؟

- مش مهم تعرف إزاي, المهم إني عايزك تكشف حقيقتها قدام الناس علشان يبطلوا يصدقوها.

أخرج الرجل من جيبه دفتر الشيكات وكتب على أحد أوراقه بسرعة ثم ناوله لعمي, اتسعت عينا عمي من الذهول عندما رأى الرقم الكبير المكتوب على الشيك, لكنه سرعان ما كبح انفعاله وقال للرجل بورع مصطنع :

- أنا راجل متدين وبعرف ربنا ومش ممكن أدخل بيتي فلوس حرام

اندهش الرجل من رد فعله :

- يعني حضرتك رافض تتعاون معايا ؟

ابتسم له عمي بخبث وتمتم:

- لا أنا موافق, بس عندي شرط واحد.

كان عمي يعيش حياة مريحة بفضل المرتب الكبير الذي يحصل عليه من عمله كمحاسب في احدي البنوك الأجنبية, لكن تلك الحياة لم ترضِ طموحه.

كان الحصول على عضوية مجلس الشعب هو الحلم الأكبر الذي يسيطر على عقله , ولكي يحقق هذا الحلم قرر أن يكون عضوًا فاعلا في الحزب الحاكم, و فعل أكثر مما عليه لكي ينال الترشيح, كان يحرص على حضور كل اجتماعات الحزب, يتبرع على قدر استطاعته بالمال من أجله, و يتقدم دائما الصفوف في المسيرات المؤيدة لترشيح الرئيس لفترة جديدة, ويحاول على قدر استطاعه التقرب من المسئولين الكبار في الحزب وكسب ودهم وعرض خدماته عليهم, رغم كل ذلك فإن لجنة الانتخابات لم يقع اختيارها عليه حتى

الآن لأن كبار الأعضاء من رجال الأعمال الذين يقدمون تبرعات مالية كبيرة للحزب كانوا يحصلون على الترشيح دائما.

مع مرور السنوات بدأ يستسلم لفكرة أنه سيقضي حياته كلها مجرد محاسب في بنك, ولكن زيارة " الرجل الغامض " منحت حلمه القديم قبلة الحياة. تذكر أنه رآه يسير وراء كبار المسئولين في الحزب وهذا يعني أنه يعمل مع أحدهم. لم يتردد في أن يطلب منه بصراحة أن يضعه في قائمة مرشحي الحزب في انتخابات مجلس الشعب القادمة وأن يضمن نجاحه. حاول الرجل الغامض أن يقنع عمي بالقبول بالمبلغ المالي متحججا بأن الرجل الذي يعمل عنده لا يملك اختيار المرشحين, ولكنه رفض بحزم و ظل متشبثا بطلبه لأنه كان يعلم أن هذه هي فرصته الوحيدة لتحقيق حلمه وإذا لم يصر على اقتناصها الآن ستضيع منه إلى الأبد .

***

كانت أمي في طريقها للعودة إلى المنزل عندما فوجئت بلافتة بيضاء كبيرة مصنوعة من القماش معلقة في منتصف الشارع وقد لُصقت عليها صورة عمي وهو يرتدي " بدلة "سوداء فاخرة وتعلو شفتيه ابتسامة متكلفة.

ادهشتها العبارات المكتوبة تحت الصورة

" أهالي حي الدقي والعجوزة يؤيدون المحاسب عاطف عبد المنعم مرشح مجلس الشعب – رمز الميزان – معا لنهضة مصر " .

عرفت سبب إصرار عمي على إنكار حصوله على أموال مقابل شهادته, إنه أكثر دهاءً مما تتخيل, لقد عرف كيف يقايض المكافأة المالية الصغيرة بمكافأة أكبر وأهم.

شعرت بالإحباط والغضب عندما شاهدته يظهر في القنوات الفضائية, ويصرح أن وفاتي المفاجئة جعلته يدرك أن الحياة قصيرة وأن الإنسان لابد أن يستثمر وقته في عمل الخير وخدمة الناس , وهذا ما جعله يقرر الترشح لعضوية مجلس الشعب حتى يكرس وقته لخدمة أهالي حي الدقي والعجوزة الكرام.

فكرت في أن ترفع عليه قضية حتى تمنعه من استخدام اسمي في حملته الانتخابية, لكنها أدركت ستخسر هذه القضية لأن رابطة الدم قيد أبدي لا يمكن الانفصال عنه بحكم المحكمة حتى لو جف هذا الدم أو تحول إلى ماء آسن.

ظلت تدعو الله بعد كل صلاة أن يخسر الانتخابات ولكنها كانت تعلم أن الدعاء وحده لا يكفي إن لم يصاحبه العمل, قررت أن تسجل نفسها لأول مرة في قوائم الناخبين وحثت رامي ومراد على أن يفعلا مثلها.

في يوم الانتخابات ذهبت معهما لإحدى المدارس الحكومية التي تم استخدامها كلجنة اقتراع.

كانت اللجنة شبه خالية من الناس, أمسكت ورقة الاقتراع وقامت برسم علامة صح على اسم المرشح المستقل الذي ينافس عمي. توقعت أنه سيلقى هزيمة ساحقة في الانتخابات بعد أن سألت جيرانها الذين ذهبوا للإدلاء بأصواتهم وعرفت منهم أنهم انتخبوا منافسه بسبب كراهيتهم للحزب الحاكم.

في يوم ظهور نتيجة الانتخابات تناهى إلى سمعها أصوات تصفيق وزغاريد قادمة من بعيد, ركضت باتجاه الشرفة, ألقت ببصرها على الشارع, رأت عمي عاطف واقفا أمام عمارته يصافح الناس بحرارة ويتلقى منهم التهاني بفخر

بينما كانت زوجته تطلق الزغاريد وتوزع على الناس أكواب الشربات وقطع الحلوى.

رفع عمي رأسه إلى أعلى, تطلع إلى أمي فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البيضاء اللامعة, تدافعت الدماء إلى رأس أمي, عضت على شفتيها غيظا, بصقت ناحيته ثم أغلقت باب الشرفة.

***

أوقف عمي عاطف سيارته " الهوندا "الصغيرة أمام الرصيف المواجه لمجلس الشعب.

تطلع إلى مرآة السيارة, أخذ يتحسس ذقنه المحلوقة وشعره الرمادي المصفف بعناية, قام بعقد أزرار البذلة الزرقاء الفاخرة التي اشتراها خصيصا من أجل هذا اليوم المميز. خرج من سيارته على مهل, رفع رأسه لأعلى وأخذ يتأمل قبة المجلس البيضاء بعينين مشدوهتين كأنه سائح يشاهد الأهرامات على الطبيعة لأول مرة .

تعمد أن يسير ببطء شديد باتجاه بوابة المجلس حتى يطيل استمتاعه بتلك اللحظة التي حلُم بها طوال حياته. رأى كبار المسئولين والوزراء يخرجون من سيارات الشيفرولية والمرسيدس والفورد بينما كان النواب الشباب يقفون حولهم بأيادٍ ممدودة وابتسامات عريضة. قرر أن يفعل مثلهم فركض وراء إحدى الوزراء, أوقفه ثم قام بإلقاء التحية عليه وعرفه على نفسه بفخر " أنا النائب عاطف عبد المنعم ".

رمقه الرجل بنظرة هازئة وقال له " أنا أول مرة أشوفك هنا".

رد عليه عمي بحماس " أصلي أنا لسه نائب جديد, أنا عضو مع حضرتك في الحزب على فكرة ". ابتسم له الوزير بفتور ثم أشاح بوجهه بعيدا عنه ومشى مع حارسه باتجاه البوابة, أخفى شعوره بالحرج وسار وراء الوزير بخطوات وئيدة حتى اجتاز بوابة المجلس.

***

بدا على عمي السرور وهو يجلس على مقعده الأخضر الوثير ويحملق في وجوه نواب المجلس المشهورين, كم شاهدهم في التليفزيون يزعقون ويصيحون ويعترضون ويخطبون ويقدمون استجوابات ويبدون حسرتهم على الفساد الذي ملأ البلد.

نظر إلى الميكرفون الطويل الموضوع أمامه فغمرته النشوة, قريبا سيرج المجلس بصوته الجهوري, وسيمارس فن الخطابة الذين يعشقه,

قريبا سيطارده الناس وسيتوسلون إليه من أجل الحصول على تأشيرات لتعيين أبنائهم في الحكومة, وسيترجاه رؤساء تحرير الصحف الكبرى حتى يكتب لهم مقالات و ستتنافس القنوات الفضائية على استضافته, وسيتمكن من الترقي في سلم المناصب حتى تصبح مصر طوع إشارة من أصبعه. لفت نظره مصوري التليفزيون الذين كانوا يعدلون أوضاع كاميراتهم حتى يتمكنون من تصوير المجلس بأكمله. من المؤكد أن زوجته وولديه يجلسون أمام التليفزيون الآن في انتظار أن يشاهدونه وهو يؤدي القسم , ارتسمت على وجهه ابتسامة زهو, تذكر فجأة البصاق المتطاير من فم أمي والنظرة القاسية التي ألقتها عليه قبل أن تغلق الشرفة فتبخرت الابتسامة من على وجهه وأحس بالضيق, حاول أن يهرب من المشاعر المتصارعة داخله بالحديث مع زميله الذي كان

يلعب بهاتفه المحمول, قبل أن يبدأ في الحديث معه سمع صوتي يرن في أذنيه ثم فوجئ بي أجلس مكان زميله.

كنت ارتدي بنطلون جينز أزرق وتيشيرت أبيض مرسوم عليه صورة رجل معصوب العينين. ابتسمت له بينما تفجرت الدماء من رأسي كما تتفجر المياه من الشلال. تملكه الرعب, أخذ ينتفض بينما كان صدره يعلو ويهبط, هتف في سره " باسم الله الرحمن الرحيم ", أغمض عينيه حتى لا يراني, سد أذنيه حتى لا يسمعني وأنا أقول له " مبروك يا عمي " وأمد له يدي المخضبة بالدماء حتى أصافحه. أقنع نفسه أن شبحي لم يتراءى له لأن الأشباح ليس لها وجود, إن ما يراه هلاوس بصرية ناتجة عن تأثره بالحادث المريع التي وقع لي.

كان مقتنعا أنه لم يظلمني ولم يظلم أمي ولم يكذب في شهادته, لقد طلب الرجل الغامض منه أن يشهد أنني انتحرت لكنه رفض لأنه يعلم أنني لم انتحر وفي الوقت نفسه لم يستطع أن يصدق أنني كنت ناشطا سياسيًا.

حصوله على عضوية البرلمان بهذه الطريقة ليس خطئا, إنه يستحق أن يكون نائبا أكثر من الجهلة وأنصاف المتعلمين الذين يملئون المجلس وهذه هي الطريقة الوحيدة المتوافرة أمامه للحصول على حقه. تبخر شبحي من رأسه عندما رأى طاقم حراسة رئيس الجمهورية يدخلون البرلمان, بعد لحظات دخل رئيس الجمهورية البرلمان بخطوات بطيئة واثقة, أخذ يحيي النواب ملوحا بيديه بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة, هب عمي واقفا مع باقي النواب وشاركهم في قرع طبول التصفيق والهتاف باسم الرئيس.

-22

جلست أمي ورائف المحامي ورامي ومراد ونوران وخطيبها راجح في الصف الأول في قاعة محكمة جنايات الجيزة, وجلس ورائهم مجموعة من النشطاء السياسيين والحقوقيين و جميع أعضاء حركة لا لتكميم الأفواه , ومراسلي بعض القنوات الفضائية و الصحف المستقلة الصغيرة وقلة من الشباب الذين لا زالوا يتذكرون قضيتي.

أحكم التوتر والترقب سيطرته على الجميع في انتظار خروج هيئة المحكمة للنطق بالحكم في القضية التي تأجلت عدة مرات. لم يستطع أفراد أسرتي منع الغضب والإحباط من التسلل إلى نفوسهم عندما وقعت عيونهم على قفص الاتهام الفارغ.

مط مراد شفتيه وتمتم مخاطبا رامي " أكيد هربوه بره مصر لأن كل الناس دلوقتي بقوا عارفين شكله". هز رامي رأسه بالنفي" لا أنا حاسس انه لسه هنا بس يمكن يكون اتنكر وغير شكله, مش كده يا ماما ؟ " , امتقع وجه أمي ثم أومأت في صمت مؤكدة على تخمين رامي, كانت تعتقد أن المجرم لا يزال موجودا في مصر, وأن " الرجل الغامض " هو الوحيد الذي يعرف مكانه, ولكنها جاهدت حتى تخفي رأيها عن رامي ومراد خوفا من أن ينفذ الرجل تهديده ويوقع عليهم أي أذى.

أعلن الحاجب عن وصول هيئة المحكمة, انتفض الجميع واقفين وتركزت أبصارهم على القضاة الذين دخلوا قاعة المحكمة مسرعين ثم جلسوا في مقاعدهم.

قام الصحفيين ومراسلي القنوات الفضائية من أماكنهم ووضعوا أجهزة التسجيل والميكروفونات أمام المنصة وصوبوا عدسات الكاميرا على وجوه أعضاء المحكمة.

قام رئيس المحكمة بوضع الأوراق على المنصة, قرب الميكروفون من وجهه وشرع في قراءة حيثيات الحكم بصوت مرتفع. افتتح كلامه بالآية القرآنية " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " , تحدث مطولا عن حرمة النفس البشرية, أخذ يشرح وقائع القضية وشهادة شهود العيان الذين اتفقوا باستثناء عمي أن المتهم هو الذي اعتدى علي بالضرب بدون سبب واضح, ذكر تقرير كبار الأطباء الشرعيين الذي أظهر أخطاء التقرير الأول, وأكد أنني توفيت من جراء الضرب المبرح الذي تعرضت له ثم انتهى بقوله " حكمت المحكمة غيابيا على المتهم سيد عوض الله أبو السباع وشهرته سيد مشرط " بالسجن المشدد سبع سنوات ".

صاح الحاجب " رفعت الجلسة " . هب أعضاء المحكمة واقفين ثم خرجوا من القاعة بسرعة وتركوا أمي ورامي ومراد متسمرين في أماكنهم من الصدمة, فرت الدموع من عيني نوران وهي تربت على كتف أمي و تهتف بأسى " حسبي الله نعم والوكيل " بينما تجمع راجح وبقية الشباب حول رامي ومراد وأخذوا يغدقونهم بكلمات المواساة والرثاء.

تجمع الصحفيين ومراسلي القنوات الفضائية حول أفراد أسرتي وأخذوا يكررون عليهم السؤال نفسه" إيه رأيكم في الحكم ؟". أشفق رائف عليهم من الحديث فتطوع للرد بالنيابة عنهم " الحكم مخفف إلى أقصى درجة ولا يناسب إطلاقا الجريمة البشعة اللي تم ارتكابها, المشكلة أن هيئة المحكمة

رفضت طلبي بتعديل التكييف القانوني الجريمة من الضرب المفضي إلى الموت إلى القتل مع سبق الإصرار والترصد بسبب عدم تيقنهم من تعمد المجرم قتل المجني عليه وعدم توافر أدلة كافية أن فيه جهة أمنية حرضته على استهدافه, بس طبعا أنا هعمل طعن على الحكم وهطالب بإعادة إجراء المحاكمة وتوقيع أقصى عقوبة على القاتل" .

***

خرجت أمي من قاعة المحكمة وهي تجر قدميها بصعوبة كالمحارب الذي يجر أذيال هزيمته, رغم أن رائف عبد العزيز هيأها لتقبل الحكم و أخبرها أن المجرم لا يمكن أن يحصل على مؤبد أو إعدام بسبب التكييف القانوني للجريمة إلا أنها ظلت مؤمنة أن المحكمة ستوقع على المجرم العقوبة التي يستحقها, ولكن إيمانها تبخر في الهواء مع العبارات التي نطق بها القاضي.
ظلت تسأل نفسها لماذا ؟ لماذا لم يستجب الله لدعواتها التي لم تنقطع ليلا ولا نهارا على من ظلموها وظلموني ؟, لماذا لم يُحبط عملهم وينصرها عليهم ؟, هل الله غاضب عليها ؟ لماذا ؟, إنها تؤدي كل الفروض و النوافل ولم ترتكب أي كبائر, أم أن دعواتها لم تصل إلى الله لأن الله ليس له وجود و الشيطان هو الذي يحكم هذا العالم ؟.
رغم أنها كانت تدرك خطورة تلك التساؤلات إلا أنها لم تستطع أن تمنعها من التجول في عقلها.
عادت إلى المنزل مع مراد بينما تركهما رامي وذهب إلى كليته, كانت على وشك أن تدخل غرفة النوم لكنه أوقفها باقتراح مفاجئ " إيه رأيك لو نخرج النهاردة ونروح نتغدى في أي مطعم ؟"

قطبت جبينها وردت عليه بغضب: " مطعم إيه انت ليك نفس تاكل بعد اللي حصل؟"

رد عليها بهدوء : " انا لو كان بإيدي كنت أصوم طول عمري , بس البطن متعرفش تحزن وبعدين تفتكري لو أضربنا عن الاكل فيه حاجة هتتغير ".

بدا الاستنكار على ملامحها, حاول أن يقنعها الابتلاء الذي تتعرض له الآن هو اختبار عسير من الله لابد أن تجتازه لأنها لو رسبت فيه ستخسر الدنيا والآخرة, نصحها أن تتقبل الحكم وتصبر وتحتسب وتنتظر تحقق عدالة السماء الكاملة لأن عدالة الأرض الجزئية دائما مبتورة ولا تنصف المظلومين.

حاولت أن تقتنع بكلامه وحاولت أن تنفذ نصائحه وتتقبل الأمر الواقع وتمضي قدما في حياتها, محاولاتها كانت تنجح في الصباح عندما تكون مشغولة في القيام بأعمال المنزل, لكنها كانت تبوء بالفشل في الليل عندما تدخل حجرتي وتختلي بنفسها, كانت في تلك اللحظات تجد نفسها محاصرة من كل الجهات بمشاعر الغضب والإحباط واليأس والكراهية والضعف وقلة الحيلة, وسرعان ما تتحول هذه المشاعر إلى سكاكين حادة تشق جسدها وتمزق أحشائها فتظل جالسة في الفراش تئن وتبكي حتى الصباح.

صارت تعتمد على الحبوب المنومة حتى تحصل على إجازة مؤقتة من آلامها في ساعات الليل, ولكن ما أن يتلاشى مفعول الحبوب حتى تعود الآلام لتنتقم منها في النهار فتهاجمها بعنف وتُمعن في تعذيبها.

لم تعد قادرة على التظاهر بالصبر والإيمان, لم يعد بإمكانها احتمال نظرات الشفقة والحسرة التي تقفز من عيون الناس كلما رأوها, توقفت عن الخروج

من المنزل, أغلقت هاتفها وانعزلت عن الناس, استعانت بخادمة لكي تقوم بالطهي والتنظيف بدلا منها و صارت تقضي أغلب وقتها مستلقية في فراشها تحدق في الحائط بعيون زائغة و تسبح في تيار أفكارها التي تتأرجح بين الاشتياق إلى رؤيتي أو التفكير في مكان المجرم الذي قتلني أو استرجاع ذكريات الماضي السعيد قبل وفاتي.

كان مراد يشعر بالألم والحسرة وهو يشاهد ثقب الاكتئاب الأسود يبتلع أمي , اقنع نفسه أن الأزمة النفسية التي تمر بها عابرة وستزول بعد حين, حاول أن يطيب جراحها بحديثه عن الإيمان والصبر على الابتلاء ,اقترح عليها أن تخرج من المنزل وتزور صديقاتها وقريباتها أو تشغل نفسها بحضور الدروس الدينية والمشاركة في الأنشطة الخيرية ولكن نصائحه لم تلقى منها أذانا صاغية , استمرت حالتها النفسية في التدهور حتى خاف أن يؤدي اكتئابها إلى إصابتها بمرض عضوي خطير, حثها على زيارة طبيب نفسي ولكنها رفضت وطلبت منه أن يتوقف عن الحديث معها ويتركها في حالها لتعيش الأيام الباقية من حياتها البائسة كما تريد, حينئذ أدرك أن حالتها ميئوس منها فتوقف عن محاولة إنقاذها, لم يعد مراد قادرا على البقاء وحيدا في المنزل بينما رامي مشغول في دراسته وأمي منعزلة في غرفتها, لم يعد قادرا على احتمال صمت المنزل والوجع الساكن في أركانه, صار يقضي كل يومه في عيادته ويعود للمنزل فقط من أجل النوم وتناول الطعام, رغم أن كل شيء حوله كان ينطق بالحزن والكآبة لكنه ظل متمسكا بالأمل من أجل رامي, كان فخورا بقدرة ابنه على التصدي للأحزان ومواصلة الدراسة والاجتهاد رغم الظروف السيئة المحيطة به.

ما لم يعرفه مراد أن رامي كان يتظاهر بالتماسك والهدوء أمامه فقط بينما كان يخفي بداخله كمية مهولة من الكراهية تجاه كل من حوله, إنه يكره سلبية أمي وانعزالها واستسلامها للأمر الواقع, ويكره ضغط والده المستمر عليه حتى يتفوق ويحافظ على مستواه العلمي المتقدم, ويكره دراسته المملة وزملائه التافهين.

توسعت دائرة الكراهية بداخله حتى صار يكره كل الناس والبلد و الحياة بأكملها, إنها دنيا وليست حياة, دنيا تافهة كاذبة زائفة , تبدو مثل حسناء رائعة الجمال تبهرك و تمارس عليك فنون الإغراء حتى تدفعك للعمل حتى تصل إليها وتلمسها وتتمتع بجمالها, ولكنك كلما تقترب منها تكتشف أنها تخدعك وأنها تغطي وجهها بالأصباغ حتى تخفي عنك حقيقة أنها فتاة دميمة لا تستحق أي اهتمام.

لم يعد رامي يرى إلا هدفًا واحدًا من وجوده في هذه الدنيا, الانتقام من المجرم الذي قتلني وقتله وقتل أمي.

خطرت له في إحدى الأيام فكرة عجيبة, ماذا لو طاف الشوارع بحثا عن سيد مشرط ثم قام بتأجير مجموعة من البلطجية لكي يقتلونه كما قتلني بالضرب حتى الموت ؟.

كان يعلم أنه سيتلقى السخرية والاستهزاء إذا أعلن عن فكرته لأمي وأبيه لذلك قرر أن يطبقها سرًا, كان يوهم أبيه أنه يذهب للكلية لكنه كان يقضي أيامه في زيارة الأحياء الشعبية والعشوائية المشهورة بالبلطجية والمجرمين, يجلس على مقاهيها حاملا صورة سيد مشرط في جيبه , يحملق في وجوه

الرجال بحثا عن وجهه الدميم, يرى ملامحه تمتزج بملامحهم فتداهمه رغبة متوحشة في قتلهم جميعا,

في النهاية كان يعود إلى المنزل ليلا مهزوما خائر القوى ليجلس أمام الكمبيوتر وينغمس في ألعاب الكترونية عنيفة حتى آخر الليل, ثم ينام وهو يتمنى أن يحمل الغد مفاجأة تحقق له رغبته.

-23

لم تفهم أمي سبب إلحاح نوران عليها لكي تشارك في هذه المظاهرة التي دعا إليها مجموعة من النشطاء المجهولين على الفيس بوك احتجاجا على سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية في البلاد. اعتقدت أنها ستكون مجرد مظاهرة أخرى مثل المظاهرات التي قام بها الشباب مؤخراً احتجاجا على تزوير انتخابات مجلس الشعب وحبس الصحفيين واعتقال المعارضين, لقد تابعت هذه المظاهرات من قبل ورأتها تنتهي كل مرة بنفس الطريقة المأساوية, إذ تقوم الشرطة بضرب وسحل المشاركين فيها, ثم تعتقلهم وتسقيهم صنوف العذاب والذل والإهانة ولا تفرج عنهم إلا بصعوبة. لقد تخلت أمي عن إيمانها بالمظاهرات والاحتجاجات وصارت تراها ضجيجا بلا طحن, لذلك اعتذرت لنوران قائلة :

-اعذريني أنا مش هقدر أبهدل نفسي وأشارك في مظاهرة فاشلة

- المظاهرة دي مش هتبقى فاشلة, ده فيه حوالي خمس ألاف مشترك على الفيس بوك وافقوا إنهم يشاركوا فيها

ضحكت أمي على سذاجة نوران:

- لكن لما تيجي ساعة الجد معظمهم هيتراجعوا وهيفضلوا قاعدين في بيوتهم, وحتى لو نزلوا مش هيقدروا يغيروا حاجة, ما فيه ناس كتير نزلوا علشان باسل و النتيجة متغيرتش, المجرم فضل هربان والحكم اللي أخده كان مخفف.

لم تستطع نوران أن تلوم أمي على يأسها , لقد أصيبت باليأس مثلها بعد الحكم في قضيتي , لكن حماس أصدقائها وزملائها للنزول جدد الأمل في نفسها, قالت لها بثقة قبل أن تنصرف من المنزل :" أنا متأكدة إنك هتغيري رأيك لما تشوفي المظاهرة بنفسك"

***

كانت أمي تقف في المطبخ أمام البوتاجاز لتعد نفسها قهوة الصباح , تناهى إلى سمعها صوت ضجيج غير واضح المعالم, ارتفع الصوت تدريجيًا, إنه صوت بشر يهتفون بانتظام كأنهم تلاميذ يقومون بتحية العلم.

أحست أن أقدامهم تهز أركان الشقة, تسارعت دقات قلبها, أطفأت النار على القهوة وركضت إلى الشرفة. رأت أعدادًا ضخمة من الرجال والفتيات والشباب والشيوخ يدخلون الشارع بثقة في مسيرات و يهتفون " الشعب يريد إسقاط النظام " " الشعب يريد الحرية " " يسقط الرئيس الفاسد ".

أبطئوا من مشيتهم, توقفوا, رفعوا رؤوسهم إلى أعلى وأخذوا يشيرون إليها وإلى باقي الجيران بعلامات النصر ويحثونهم على النزول والمشاركة معهم. أصواتهم الغاضبة كانت تهدر كأنها عاصفة عنيفة من الأمواج العاتية القادرة على تحطيم أقوى الصخور.

هتافاتهم رجت قلبها وبعثت داخلها مزيجا متناقضا من العواطف بين الفرحة بشجاعتهم والتعاطف مع غضبهم والدهشة من جرأتهم على الهتاف ضد الرئيس بشكل مباشر والخوف أن يكون الاعتقال أو القتل هو مصيرهم.

سمعت صوت ارتطام باب الشقة, تركت الشرفة وركضت نحو الصالة, رأت مرادا يدخل عليها بخطوات سريعة والذعر يكسو وجهه, سألها " هو رامي خرج ؟"

هزت رأسها " لا , ده لسه نايم "

تنفس الصعداء وهتف " الحمد لله " , تطلعت إليه باستغراب وسألته :

- مالك قلقان على رامي ليه ؟ وإيه اللي رجعك من العيادة بدري كده ؟

جلس على الكرسي المواجه لباب الشقة ليلتقط أنفاسه ثم شرح لها ما رآه بصوت مرتجف:

- معرفتش أروح العيادة , لقيت الطرق كلها مقفولة, كل الشوارع فيها مظاهرات والبوليس بيجري ورا الناس وبيضرب عليهم رصاص وخرطوش وبيرمي عليهم غاز مسيل للدموع , وشفت مصابين وكان فيه ناس بيحاولوا يسعفوهم.

استيقظ رامي من النوم على صوت أبيه, خرج من الغرفة ليرحب بوصوله فوجده يرمقه بنظرة صارمة ويقول له محذرًا :

- إوعى تخرج من البيت خالص النهاردة.

تناهى إلى سمع مراد أصوات إطلاق رصاص , جرى مذعورا باتجاه الشرفات والشبابيك وقام بإغلاقها بإحكام, حذر أمي ورامي من فتحها لأنه رأى في طريقه للمنزل فتاة شابة تسقط قتيلة من رصاصة طائشة أصابتها بينما كانت تشاهد المظاهرات من شرفة منزلها. هزت أمي رأسها في استنكار و قالت له:

- مش شايف إنك مبالغ في الخوف شوية ؟

- طب افتحي التليفزيون وانتي هتتأكدي إن كلامي صح .

ضغطت على زر الريموت كنترول الاحمر لكي تفتح التليفزيون, أخذت تتجول بين القنوات المصرية, لم تجد سوى برامج طبخ وأفلام ومسلسلات معادة, انتقلت إلى إحدى القنوات الإخبارية العربية, وجدت القناة تنقل تغطية مباشرة للمظاهرات.

وقف المراسل في الشارع ليشرح للمشاهدين أن كل شوارع وسط المدينة ممتلئة بأعداد غير مسبوقة من المتظاهرين وأن قوات الأمن تحاول تفرقتهم بخراطيم المياه وقنابل الغاز المسيل للدموع بينما كان مجموعة كبيرة من الشباب يسيرون ورائه ويغطون على صوته بأصوات هتافاتهم.

تسمرت أمي ومراد أمام التليفزيون ليتابعا أخبار المظاهرات التي اندلعت في محافظات أخرى, دخل رامي عليهما وعلى وجهه علامات الحماس وقال لهما :

- تعالوا شوفوا الفيديو ده

-فيديو إيه ؟

- بس تعالوا شوفوه وانتم هتعرفوا

دخلا حجرته ثم اقتربا من شاشة الكمبيوتر, شاهدا الفيديو يعرض عشرات الشباب يسيرون في الشارع حاملين صورتي بجوار صور مجموعة من المعارضين الذين تعرضوا للاغتيال في الفترة الأخيرة, أخذوا يهتفون " ورحمة الشهداء لازم نشيل النظام " .

رفع مراد حاجبيه في دهشة وقال " المظاهرات دي باين عليها هتبقى أقوى من كل مرة ", ارتسمت ابتسامة الفخر على وجه أمي وهي تشاهد أحد

المتظاهرين يحتضن صورتي, رقصت الدموع على سطح عينيها , تذكرت نبوءة نوران فقررت أن تتصل بها لتطمئن عليها .

ردت نوران عليها بصعوبة بسبب ضجة المتظاهرين المحيطين بها .

طمأنتها على حالها وشرحت لها المسار الذي اتخذته المسيرات منذ الصباح " إحنا كنا ماشيين في مسيرة في وسط البلد وبعدين الأمن طاردنا ورمي علينا غاز مسيل للدموع, هربنا منهم لميدان التحرير وقررنا إننا نفضل معتصمين هنا لغاية لما نسقط الحكومة, لازم تيجي الميدان يا طنط , لازم تشاركي معانا ".

انقطع صوت نوران فجأة, عاودت أمي الاتصال بها. ظل الهاتف يرن عدة مرات بدون رد. عرفت سبب انقطاع اتصالها بنوران عندما نظرت لشريط الأخبار وعرفت أنه تم قطع الاتصالات عن ميدان التحرير وأن الشرطة تحاول إخلائه من المعتصمين بالقوة.

داهمها الخوف, ظلت تحاول الاتصال بها, أخيرا ردت عليها نوران بأنفاس متقطعة, طمأنتها أنها عادت إلى منزلها ولم يصبها أي مكروه ولكن طلقات الرصاص والخرطوش أصابت المئات من زملائها المتظاهرين وأدت إلى استشهاد العشرات منهم والباقي تم نقلهم إلى المستشفى في حالة خطيرة .

قامت أمي بمواساتها :

- معلش المهم حمد لله على سلامتك وعلى فكرة أنا كنت عارفة كويس إن ده اللي هيحصل بس علشان تعرفي إني كنت صح لما قلت لك إن المظاهرات دي هتفشل

ردت عليها نوران بحدة :

- مين قالك إنها فشلت, إحنا مش ممكن نتوقف, إحنا اتفقنا على الرجوع للميدان يوم الجمعة علشان نسقط الرئيس لأنه هو اللي أمر البوليس بضرب الرصاص علينا, دم الناس اللي ماتوا النهاردة ده غالي جدا ومش ممكن يروح هدر .

لم تستطع أمي أن تقنع نوران بعدم التظاهر, إنها مثلها ومثل الكثير من الناس تكره الرئيس وتكره نظام حكمه, لكنها كانت مقتنعة أن الفشل هو المصير المنطقي لتلك المظاهرات, فكيف يمكن لشعب لا يملك سوى حناجره الغاضبة أن يهزم رئيس يملك كل شيء ؟ , خافت من عاقبة فشل المظاهرات فالشرطة بالتأكيد لن تكتفي باعتقال المتظاهرين بل ستعلقهم على المشانق في الميادين العامة حتى ترهب أي شخص يُجرؤ على التفكير في إسقاط الرئيس.

اعتقدت أمي أن توقعاتها ستتحقق عندما توقفت خدمة الانترنت والتليفون المحمول عن العمل, وتم الإعلان عن اعتقال العشرات من النشطاء السياسيين والمعارضين, اتصلت بنوران في منزلها وأخذت تتوسل إليها ألا تذهب للميدان حتى لا تعرض حياتها للخطر,

ولكن نوران لم تعبأ بتحذيراتها وقالت لها "حضرتك ناسية إن حياتي معرضة للخطر طول الوقت بحكم شغلي, أنا أحسن لي إني أموت من الرصاص في الشارع بدل لما أموت من الخوف في البيت ".

جلست أمي أمام التليفزيون يوم الجمعة بينما كان القلق من المستقبل يسيطر على أعصابها , كانت لا تزال تعتقد أن مظاهرات اليوم سيتم فضها بالقوة مثل المظاهرات الأولى, كانت تخشى أن تتحول عملية الفض إلى مذبحة دموية لن تنجو منها نوران, لكنها فوجئت بملايين الناس في كل المحافظات يملئون الشوارع ويهتفون ضد النظام ويصرون على الاعتصام في الميادين. استولى

عليها الذهول وهي تشاهد المتظاهرين يتلقون الغازات المسيلة للدموع وطلقت الخرطوش والرصاص بصدور مفتوحة ورؤوس مرفوعة, وكلما يسقط شهيد جديد يزداد إصرار الباقين على الاستمرار في الاعتصام لحين تحقيق المطالب التي استشهد زملائهم من أجلها.

اقتنعت أمي أخيرا أن ما يجري ليست مجرد مظاهرات عارضة, إنها حدث تاريخي فريد من نوعه نادرًا ما يقع في حياة الأمم, حدث بإمكانه أن يهز عروش الحكام و يغير مصير الشعوب للأبد, إنها ثورة.

شعرت أمي أنني لو كنت لا أزال قيد الحياة لكنت أول المنضمين للثورة وبالتأكيد كانت ستحاول منعي من الذهاب إلى الميدان مثلما تفعل جاراتها وصديقاتها مع أبنائهن , أرادت تحل محلي وتقوم بالدور الذي كنت سأقوم به, كانت الرغبة في الذهاب إلى ميدان التحرير تنمو وتتصاعد في قلبها مع ارتفاع أعداد الشهداء والمصابين وتزايد أعداد المتظاهرين والمعتصمين. لكن مراد كان يتمكن دائما من منع رغبتها من التحول إلى فعل بتحذيراته وتوسلاته " أرجوكي بلاش تتهوري , كفاية علينا مصيبة واحدة , بلاش تخليهم مصيبتين , أنا ورامي مش هنقدر نعيش من غيرك "

رغم أن مرادا لم يكن مؤيدا للنظام ولم يكن موافقا على أسلوب الرئيس في إدارة البلاد إلا أنه كان يشعر بخوف عارم من الثورة, وكان يدعو الله كل صباح أن تنتهي أيامها على خير بسرعة, كان يراها إعصارا مدمرا قلب الحياة في مصر رأسا على عقب وأصابها بالشلل ونزع منها الأمان والاستقرار ونشر فيها الفوضى والخوف, لم يكن مقتنعا بعقلية الثوار ولا

بمطالبهم. كان يراهم أطفال غاضبين مندفعين متهورين لا يحكمهم قائد عاقل ولا يجمعهم هدف محدد .

تمنى أن يستطيع الرئيس أن يتوصل إلى أسلوب حكيم لاحتواء هؤلاء " الأطفال " وإنهاء اعتصامهم وإعادة الوضع إلى ما كان عليه, استبشر خيرًا عندما أعلن التليفزيون الحكومي أن الرئيس سيلقي خطابا هاما للشعب.

جلس مع أمي ورامي لمشاهدة الخطاب , تطلع الرئيس إلى الكاميرا كالنمر المتحفز ودمدم قائلا " يشتكون من الفساد ولكن ما المشكلة ؟, كل دول العالم فيها فساد ونحن نحارب الفساد على قدر المستطاع , يشتكون من التعذيب ,وأقول لهم إنها حوادث فردية تم توقيع العقوبات على مرتكبيها, يطالبون بالحرية فأقول لهم أننا نتمتع بأعلى قدر من الحرية في العالم العربي, ثم إنهم لا يريدون الحرية, إنهم يريدون الفوضى, يريدون الخراب, يريدون هدم الوطن وأنا لا لن أسمح لهم أبدا بهدم الوطن"

بدا الاستياء على وجه رامي وهو يشاهد الخطاب, ضغط على شفته السفلى بأسنانه وهتف بحنق " أنا كنت فاكره هيتنحى, شكله ناوي يعند ويكمل بالعافية",

رد عليه مراد هازئًا " مش ممكن يتنحى , يعني انت فاكره هيتنازل عن منصبه علشان شوية عيال نزلوا في الشارع وهتفوا ضده , هو بس محتاج يقولهم أي كلام يهديهم ويخليهم يرجعوا بيوتهم ".

رد عليه رامي منفعلاً " دول مش شوية عيال يا بابا, دول ثوار, مش كده يا ماما ؟" تطلع رامي إلى أمي في انتظار أن تشاركه في الدفاع عن الثوار ولكنها لم ترد عليه لأنها لم تنتبه لحديثه, كانت عيناها مثبتتان على الرجل

الذي كان يقف خلف الرئيس ,ويحرسه بعينيه الثاقبتين, اقتربت من التليفزيون وأخذت تحملق في وجهه, أدركت أنها تعرفه جيدا, إنه الرجل الغامض الذي زارها منذ شهور , ولكنه لم يعد غامضا بعد اليوم, صحيح أنها لم ولن تعرف اسمه ولكن هويته لم تعد مجهولة بالنسبة لها والخوف الذي كان يثيره في نفسها تبخر تماما.

نظر رامي إليها باستغراب متسائلا " انتي ساكتة ليه يا ماما ؟", تطلعت له ولمراد بوجوم ثم عادت تنظر إلى وجه الرجل الغامض, استجمعت كل ما لديها من شجاعة و قررت أن تبوح لرامي ولمراد بتفاصيل زيارة الرجل الغامض لها.

التفاصيل التي حكتها أمي أصابتهما بالذهول والفزع, كيف استطاعت أن تخفي هذا السر الخطير عنهما كل هذه المدة ؟, أدركا لماذا زاد صمتها وانعزالها خلال الفترة الأخيرة , ولماذا كان الخوف يبدو عليها كلما تحدثا معها عن مكان هروب سيد مشرط .

شعرت أمي بارتياح عميق بعد أن اعترفت بالحقيقة , لقد حررها الاعتراف من مخاوفها وأعطاها جرعة قوية من الشجاعة لكي تحسم الصراع المحتدم داخلها, دخلت حجرتي لتغير ملابسها ثم عادت إلى حجرة المعيشة, نظرت إلى مراد ورامي بثقة وقالت لهما " أنا رايحة ميدان التحرير".

تهلل وجه رامي وقال لها بحماس " برافو عليكي يا ماما ", كاد يخبرها أنه يريد أن يرافقها , لكنه تراجع عندما رأى الامتعاض يكسو وجه والده. اقترب مراد من أمي وأخذ يحاول إثارة الخوف في نفسها بنفس العبارات المكررة, كلماته لم تؤثر عليها هذه المرة لأن رغبتها في الذهاب إلى الميدان ملكت

عليها نفسها فصارت لا تحتمل البقاء في المنزل ولو لدقيقة. ابتسمت له وطمأنته : " متخافش إن شاء الله هارجع تاني",

الإصرار البادي على ملامحها جعله يوقن أنها عقدت العزم على الخروج وأنه لن يتمكن من منعها مهما حاول , استسلم لرغبتها واضطر أن يودعها بعينين دامعتين وقلب مسكون بالخوف من أن تجرفها الثورة في تيارها مثلما جرفت الآلاف الذين ذهبوا إلى الميدان.

24 –

" أنا كنت متأكدة إنك هتيجي " كانت هذه هي الكلمات التي استقبلت بها نوران أمي بينما استقبلها الثوار بالابتسامات والأحضان كأنها أمهم التي عادت إليهم بعد سفر طويل . شعرت أمي أن كل الثوار والثائرات في الميدان حتى كبار السن منهم أبنائها وبناتها, شعرت بروحي ترفرف فوق رؤوسهم, رأت ابتسامتي تتوهج على وجوههم المتمردة وسمعت رنين صوتي في هتافاتهم, عندما جلست معهم وتعرفت عليهم أدركت لماذا تشعر بالألفة نحوهم, جميعهم أهالي شهداء أو أصحاب حقوق مسلوبة أو أحلام مسروقة, جميعهم يكرهون الواقع ويتلهفون لتغييره لأسباب مختلفة. منهم الشاب الذي قضي حياته يعمل في وظائف مؤقتة بمرتب هزيل قبل أن تهزمه البطالة, منهم الأم التي مات ابنها تحت وطأة التعذيب حتى يعترف بجريمة لم يرتكبها, منهم الفتاة التي مات أبوها بسبب الإهمال في علاجه في مستشفيات الحكومة, منهم المواطن المسكين الذي يعيش مع أسرته في حجرة ضيقة والذي وجد فقره يتحول إلى سلعة رائجة في مواسم الانتخابات وسلعة بائرة باقي أيام العام, منهم المفكرون والصحفيون والمعارضون مثل نوران وزملائها الذين قضوا حياتهم كلها مطاردين كالمجرمين لأنهم خرجوا عن كتالوج المعارضة المرسوم.

قصص هؤلاء الناس رفعت العتمة عن بصر أمي, وجعلتها تدرك أن الله لم يستجب لدعوتها على من قتلوني لأن من قتلوني ليسوا مجرد أشخاص بل نظام حكم.

قضت أمي في الميدان أجمل وأخطر أيام حياتها, عاشت تجارب يحتاج الإنسان عمرا بأكمله لكي يعيشها.

اختبرت كل أطياف المشاعر الإنسانية.عرفت معنى الشجاعة بعد أن قابلت الموت وجها لوجه عدة مرات, ورأت طلقات الرصاص تتجه صوبها ثم فوجئت بأحد الشباب يتقدم أمامها بدون تفكير ويشكل من جسده درعًا حتى يحميها . اختبرت الحزن الذي عاشته يوم وفاتي مجددا بعد أن رأت عدد كبيرا من الشباب الذين كانوا يملئون الميدان بالهتافات والضحكات والمناقشات يسقطون تحت أمطار الرصاص ثم سرعان ما يتحولون إلى أرقام يتم ذكرها في نشرات الأخبار .

تذوقت رشفات من كأس السعادة عندما كانت تستمع لقصائد الثوار وأغانيهم أو ترى عروسين يأتون للاحتفال بزواجهم أو بخطبتهم في الميدان. رغم كل المخاطر المحدقة بها في الميدان لم ينتابها أي خوف وهي داخله , بل بالعكس كان الخوف يسيطر عليها عندما كانت تعود إلى المنزل في الليل لكي تحصل على بضع ساعات من النوم وتحضر الطعام للثوار ولم يكن يهجرها إلا بعد أن تعود إلى أحضان الميدان.

تركت أمي ذاتها تذوب تدريجيا وتمتزج مع ذوات باقي الثوار حتى نسيت نفسها وهويتها وحياتها, لقد وحدت المظالم والآلام والآمال والأحلام العريضة

بينها وبينهم وأزالت الاختلافات والحواجز التي كانت تفصلهم عنها, فأضحوا جميعا أسرة واحدة, كيانا واحدًا, جسدا واحدًا, صوتا واحدًا, وإرادة واحدة.

تلقى مراد الحكايات التي ترويها أمي عن الميدان بمزيج من الدهشة والارتياب, أحس أنها تروي قصص خيالية عن المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون وفشل البشر في إقامتها, بدأ يغير رأيه تدريجيا في شباب الثورة, صار يحترم شجاعتهم وصمودهم وتعاونهم وثباتهم على مبادئهم واستعداهم للتضحية بحياتهم من أجل تحقيق أهدافهم, ولكنه في الوقت نفسه ظل متمسكا بخوفه من نجاح ثورتهم في الإطاحة بالرئيس, لم ير بينهم قوة سياسية تملك الرؤية والقدرة على قيادة البلد, وكان يخشى أن تتحقق نبوءة الرئيس وأن يؤدي تخليه عن الحكم إلى سقوط البلد في دوامة لانهائية من الفوضى.

أما رامي فلقد أحب الثورة والثوار بسبب كلام أمي عنهم, رأى أن الثورة فيضانًا انهمر على أرض جدباء أهلكها الجفاف والقحط لسنوات طويلة فرواها بعد عطش وأعاد لها الحياة بعد موت, كان يدعو الله كل يوم أن تنجح, وكان يرى أن نجاحها هو الضامن الوحيد أن الجريمة التي وقعت لي لن تتكرر مع غيري.

تمنى أن يذهب إلى الميدان حتى يكتب ولو كلمة واحدة في كتاب الثورة, رغم أن أمي لم تمانع مشاركته, إلا أنه لم يستطع أن يحول رغبته إلى فعل بسبب إصرار والده على منعه من الخروج من المنزل نهائيا خوفا على حياته. كان يفهم سبب تشدد والده في الخوف عليه خصوصا بعد وفاتي, و كان مثل أي ولد مطيع يريد أن يرضي أبيه, لكن نفسه راودته لكي يخرج عن هذه الطاعة عندما رأى أصدقائه الذين كانوا متوجسين من الثورة في البداية يغيرون رأيهم

ويذهبون للميدان ويشاركون في الاعتصامات والمظاهرات بينما هو مجبر على البقاء في المنزل كأنه فتاة تعيش في القرن التاسع عشر.

لم يتمكن رامي من التعايش مع إحساسه بأنه جندي تخلف عن خدمة وطنه في وقت الحرب, عقد العزم على الذهاب للميدان بعد أن هدأ الوضع الأمني وعادت الاتصالات, اتصل بأصدقائه الذين اعتادوا على الذهاب إلى الميدان كل يوم و طلب منهم أن يسمحوا له بمرافقتهم, بعد أن عادت أمي من الميدان في الصباح أخبرها بنيته وطلب منها أن تخفي الأمر عن أبيه.

انتظر حتى خرج والده لشراء بعض الحاجيات وتسلل من المنزل, اجتمع مع أصدقائه وركب سيارة احدهم والحماس يملأه لرؤية الميدان على أرض الواقع, في الطريق أخذ أصدقائه يتحدثون عن الجنازة الشعبية المهيبة التي أقيمت بالأمس من أجل الشهداء الذين سقطوا الأيام الماضية, حديثهم جعله يفكر في أنه قد يصير مثلهم, تخيل شكل الجنازة التي سيتم إقامتها له, تخيل صورته مرفوعة في السماء واسمه يتردد على الألسن فشعر بالفرح, ثم تخيل إحساس أبيه لو تلقى خبر استشهاده, فانقبض قلبه وأحس بالذنب والشفقة على أبيه

أحس أنه تسرع في قراره بالذهاب إلى الميدان, ألم تأخذ الأسرة نصيبها من الأحزان والمصائب فلماذا يجلب عليهم مصيبة جديدة ؟ , فكر أن يطلب من صديقه أن يوقف السيارة ثم يتظاهر أنه سيذهب لشراء أي شيء ويهرب عائدا للمنزل, لكنه فوجئ بالسيارة تتوقف وأصدقائه يشيرون لمسيرة في شارع طلعت حرب متجهة للتحرير ويقترحون الانضمام لها, أدرك أن وقت التراجع قد مضى وأن ليس أمامه خيار إلا التقدم والمشاركة واحتمال تبعات قراره .

خرج من السيارة وسار مع أصدقائه باتجاه المسيرة المكونة من عشرات الشباب والفتيات, كانوا يحملون أعلام مصر و صور شهداء الثورة ويهتفون مطالبين بالحرية وسقوط النظام, حاول أن يشاركهم الهتاف, في المرة الأولى تلعثم وتعثرت الكلمات في حنجرته فأحس بالحرج من نفسه,في المرة الثانية هتف بصوت غير مسموع, في المرة الثالثة ارتفع صوته وهكذا ظل صوته يعلو ويعلو معه حماسه, ويخفت خوفه حتى أحس بطاقة هائلة تشع منه, أحس أنه قوي وأن لا أحد يستطيع أن يصيبه بأذى لأن كل هؤلاء الشباب يسيرون معه ويحرسونه ويحيطون به من كل جانب, شعر وهو يطالب بالحرية أنه صار حرا بالفعل, شعر وهو يطالب بسقوط النظام أن الكلمات التي تخرج من حنجرته ليست مجرد شعارات فارغة , إنها قذائف تسقط على رأس النظام و تهدمه و تحطم دعائمه , شعر أن روحه المريضة استردت عافيتها وأنه استطاع أن يثأر لمقتلي و يسترد حقي, دخل الميدان مع المتظاهرين, اتسعت عيناه من الانبهار وهو يتأمل أرجائه المزدحمة بالخيام والباعة والناس, بدا له أكبر كثيرا مما يبدو في التليفزيون كأنه مدينة داخل المدينة, ولكنه مدينة غير المدينة , مدينة أفضل من المدينة التي عاش فيها طوال حياته لأنها المدينة الوحيدة التي استطاعت أن توحد بين كل أفراد الشعب وتجعلهم على قلب رجل واحد.

جاء موعد صلاة الظهر فحول العلم الذي كان يحمله إلى سجادة وشارك المتظاهرين في أداء الصلاة. بعد أن انتهى من أداء الصلاة سمع رنين هاتفه, لم يحتج إلى النظر لشاشة الهاتف حتى يعرف أن المتصل هو والده.

تردد في الرد لأنه لم يكن يملك حججا كافية لكي يصد بها سيول الغضب التي يعلم أنها ستنهمر عليه, ارتفع رنين الهاتف وارتفع معه خوفه, اضطر أن يرد احتراما لأبيه, ما أن فتح هاتفه حتى دوى صوت صياحه في أذنيه:

-انت فين ؟ إيه اللي خرجك ؟ وإيه الدوشة اللي حواليك دي ؟ اوعي تكون روحت الميدان ؟

رد عليه بصوت مرتجف:

- لا, أنا في الشارع في عربية واحد صاحبي والدنيا زحمة.

لم يستطع إكمال الحديث لأن الضجيج الذي علا في الميدان فجأة غطى على صوته.

أنهى المكالمة مع أبيه معتذرا : " معلش يا بابا أنا مضطر أقفل دلوقتي وهكلمك بعد شوية ", أغلق الهاتف ووضعه في جيبه بسرعة, أشرئب بعنقه وأخذ يجول بعينيه في الميدان باحثا عن مصدر الضجيج.

سمع الواقفين بجواره يقولون أن هناك هجوما مفاجئا على الميدان من قبل مجموعة من البلطجية يريدون الاعتداء على المعتصمين, وقف أحد الثوار على المنصة و طلب من الناس أن يركضوا ناحية المتحف المصري لمنع البلطجية من اقتحام الميدان. تصاعدت عاصفة كثيفة من الغبار في السماء مع دخول مجموعة من الرجال إلى الميدان على ظهور الخيول والجمال والحمير, أخذوا يستعرضون قدراتهم القتالية بالتلويح في الهواء بالسيوف والسنج والمطاوي, كانت ملامحهم تشتعل بلهيب الغضب والكراهية والعداوة, ضربوا خيولهم وجمالهم بأرجلهم فأخذت تركض في كل اتجاه كأنها ثيران هائجة في حلبات المصارعة .

صهيل الخيول ولمعان السيوف والمطاوي تحت وهج الشمس ألقى الفزع في قلب رامي , دق قلبه بسرعة عنيفة, أحس أن ألاف أجهزة الإنذار ترن في أذنيه, تدافعت الدماء إلى رأسه و وجد نفسه يركض بلا وعي مع باقي المتظاهرين, سقط هاتفه من جيبه على الأرض, أخذ الهاتف يصدر رنات متواصلة ثم سرعان ما تحطم تحت أقدام المتظاهرين, ظل رامي يركض في الميدان بأسرع ما يمكن لكن سرعته لم تشفع له لأن الحصان الذي يجري منه ازداد اقتربا وصهيله ازداد ارتفاعا, والرجل الذي يقود الحصان كان يسب ويلعن ويتوعد بشق بطون الثوار بالسيف,لوهلة أعتقد أن حياته ستنتهي بضربة سيف من هذا الرجل, ولكن زميله أنقذه بأن أعطاه قطع من الحجارة كسرها من الرصيف حتى يدافع بها عن نفسه.

أخذ الحجارة منه وتطلع إلى صاحب الحصان, كان يغطى وجهه ما عدا عينيه بكوفية بيضاء تقطعها خطوط حمراء عريضة, رفع يديه إلى أعلى وقذف قطعة الحجارة بسرعة باتجاه الرجل فأصاب رأسه. أخذ الرجل يتأوه بينما كانت رأسه تدور في كل الاتجاهات حتى فقد سيطرته على اللجام, انتهز المتظاهرون الفرصة وتجمعوا بسرعة حوله ونزعوا السيف من يده وأخذوا يشدوه حتى أنزلوه من فوق الحصان, أحدث سقوطه اهتزازًا قويًا في المكان كأنه فيل ضخم يصطدم بالأرض.

انحسرت كوفيته من على وجهه, تطلع رامي إليه فجحظت عيناه وتسارعت نبضات قلبه, استطاع أن يتعرف على صاحب هذا الوجه بسرعة, انه الوجه الذي التصقت تفاصيله وتقاسيمه في ذاكرته للأبد كالوشم , انه الوجه الذي

كان يطارده في الكوابيس, انه الوجه الذي حُلم كثيرًا بتحطيمه وتشويهه, هذا الوجه الذي ظن أن صاحبه هرب و لن يعود أبدا.

كانت أيدي الرجال تتساقط فوق رأسه كالقذائف عندما أشار رامي له وصاح " هو ده سيد مشرط , هو ده اللي قتل أخويا ".

توقف الشباب عن ضربه, تطلعوا إلى رامي بدهشة, أخذوا يجولون بأبصارهم بينه وبين سيد مشرط الذي كان ملقى على الأرض مغمض العينين والدماء تسيل من رأسه وأنفه. اقترب رامي منه وأخذ يركله بحذائه بعنف وسرعان ما عاونه باقي الشباب في مهمته, لم يحاول سيد المقاومة, لم يطلق صرخة وجع أو اعتراض, استسلم لمصيره وترك جسده يتدحرج على الأرض بين أقدام رامي و المتظاهرين.

انغمس رامي في إشباع شهوة الانتقام التي أحكمت قبضتها عليه منذ وفاتي بينما أخذت ألغاز موتي التي عجز عن حلها تزحف على ذهنه , توقف عن ضرب سيد فجأة , اقترب منه وامسك بتلابيبه وسأله " قتلت أخويا ليه ؟مين أمرك إنك تقتله ؟ "

لم تتحرك أي عضلة في وجه سيد, صاح رامي فيه مهددًا " جاوب لو عايزني أبطل اضربك ". ارتسمت على فم سيد المغطى بخيوط الدماء ابتسامة ساخرة أشعلت الغضب في صدر رامي, أطبق بيديه على رقبته وكاد أن يخنقه لولا أنه سمع صوت طلقات رصاص تدوي في الميدان.

ترك سيد وفر هاربا مع باقي المتظاهرين من الميدان إلى الشوارع الخلفية حتى يحمي نفسه من الموت, بعد دقائق توقفت طلقات الرصاص فسارع رامي بالعودة إلى الميدان, مد بصره بعيدا إلى أسطح العمارات والمباني بحثا عن

, عاد إلى المكان الذي ترك فيه سيد مشرط, مصدر الطلقات, لم يجد أحدا. كان واثقا من هروبه, لذلك اندهش عندما رآه ملقى على الأرض في نفس المكان مغمض العينين وملابسه مشبعة بالدماء التي أخذت تتفجر من صدره. أخذ المتظاهرين يباركون لرامي قائلين " الحمد لله إن ربنا استجاب دعواتكم , ربنا منتقم جبار ". رسم رامي على شفتيه ابتسامة واهنة وشكرهم, عبارات التهنئة والمباركة بدت غريبة على أذنيه .

لم يعرف لماذا كان عاجزًا عن مشاركة المتظاهرين فرحتهم بمقتل سيد مشرط؟

لقد كان مثلهم يؤمن أن القصاص هو الحل, وكان يعتقد أن أكوام الحزن الجاثمة على قلبه ستنزاح و موجات الغضب التي تجتاحه يوميا ستهدأ بعد أن يختفي القاتل من الحياة, ولكنه شعر بالحزن عندما رآه خارجا من الميدان فوق النقالة .

لم يكن حزينا على وفاته ولكنه كان حزينا لأنه مات قبل أن ينتزع منه الحقيقة , مات وتركه غارقا في دوامة الأسئلة واصطحب معه الإجابات إلى قبره .

توقيت موته أثار ارتيابه, هل الرصاص أصاب صدره بالمصادفة ؟ أم أن هناك قناصًا ترصده و استهدفه حتى يدفن السر قبل أن يخرج من شفتيه ويتحول إلى كلمات ترفع الستار عن اللغز ؟, إنه لغز جديد ينضم إلى قائمة الألغاز المعقدة التي لن يستطيع أن يجد لها حل .

- 25

استطاع مراد أن يربط بسهولة بين الجُلبة التي سمعها في الهاتف حول رامي وبين الخبر الذي شاهده للتو في التليفزيون عن اقتحام ميدان التحرير من قبل مجموعة من البلطجية يمتطون ظهور الخيول والحمير والجمال ويحملون أسلحة بيضاء, تملكه الذعر , وأخذ يحاول الاتصال برامي, في كل مرة يفشل في الاتصال به كان خوفه يزيد ويتصاعد ويتضخم, تحول خوف مراد على رامي إلى غضب عنيف من أمي فأخذ يؤنبها قائلا " إزاي تسيبيه يخرج , انتي مش شايفة الشوارع عاملة إزاي؟ "

رسمت على وجهها ابتسامة بلهاء وقالت له " أصله قالي إنه رايح عند واحد صاحبه ساكن قريب لأنه زهق من القعدة في البيت" .

كانت مضطرة أن تخفي عنه الحقيقة حتى لا تزيد من خوفه وحتى لا يتشاجر معها.

جلست جواره أمام التليفزيون وتصنعت الهدوء وهي تشاهد المتظاهرين يركضون ويصرخون ويتعاركون مع البلطجية الذين جاؤوا لقتلهم وطردهم , أخذت تفتش على رامي بعينيها بين الجموع التي كانت تركض في الميدان, أين ذهب ؟ هل أصيب ؟ هل استشهد ؟ أم أنه استطاع أن يفر هاربا, إذا استطاع أن يخرج من الميدان فلماذا لم يعُد حتى الآن ؟ , ربما سيعود في أي لحظة, لا يمكن أن يحرمها الله من ولديها معا, أحست أنها أخطأت عندما سمحت له بالذهاب إلى التحرير؟, كيف توافق على التضحية بابنها الوحيد ؟

وماذا ستفعل إذا انتهت حياته مثلما انتهت حياتي ؟ ظلت الأسئلة والتخمينات والتوقعات المخيفة تتزاحم في رأسها وتحطم في أعصابها .

انشغل مراد بالاتصال بأصدقاء رامي لعله يكون ذهب لأحدهم, ولكنه فوجئ أنهم لا يعرفون شيئا عن مكانه, وصل خوف مراد على رامي إلى ذروته فقرر أن يجوب الشوارع بحثا عنه .

قبل أن يغير ملابسه سمع صوت ارتطام الباب, توقف قلبه وقلب أمي عن الخفقان, ثم ركضا نحو الباب ليجدا رامي يدخل عليهما وهو يجر قدميه بصعوبة.

كان الغبار يغطي شعره الأشعث ووجهه الشاحب والبلوفر الزيتي والجينز الاسود الذي كان يرتديه ,بقدر ما شعر مراد بالارتياح عندما رأى رامي أمامه بقدر ما شعر بالغضب منه لأنه جعله يعيش أصعب لحظات حياته, جرى عليه وهم بصفعه على وجهه وهو يصيح " انت جاي من التحرير, مش كده ؟ , اوعى تكذب ",

انكمش رامي في مكانه وبدا عليه الخوف, أمسكت أمي بذراع مراد وقالت له بتوسل :", أرجوك يا مراد حالة الولد متتحملش الضرب ".

طلبت من رامي أن يجلس فجلس على الكرسي المواجه للباب, تطلعت إليه بقلق وسألته : " ايه اللي عمل فيك كده ؟".

ازدرد ريقه بصعوبة ثم شرح لها ولأبيه كل ما حدث له منذ أن دخل الميدان حتى وجد سيد مشرط مقتولا برصاصات مجهولة المصدر , تبخر الغضب من على وجه مراد وحل محله الاستبشار بينما أخذت أمي تهز رأسها في ذهول و سألته :

- مات , انت متأكد انه مات ؟

- أيوه

- يعني مش يمكن يكون اتصاب بس

- لأ , مات ليه يا مش عايزة تصدقي انه مات ؟

لم تعرف السبب , ربما لأنها اعتادت على الاستماع للأخبار السيئة .

أخذت تتنفس ببطء حتى استوعبت الخبر فهدأت أعصابها وغمرها الارتياح.

لم تهتم بمشاركة رامي في التساؤل إذا كان مقتل سيد مشرط جاء بالصدفة أم مع سبق الإصرار والترصد. شعرت بالامتنان لأن الله استجاب لدعواتها ولأن الحكم الإلهي العادل تم تنفيذه في المجرم بغض النظر عن سبب مقتله أو هوية قاتله.

مقتل سيد مشرط لم يجعلها تتصالح مع فكرة موتي أو تتوقف عن الحزن علي رحيلي أو تتوقف عن تخيل المستقبل الذي كان ينتظرني لو بقيت حيا أو أن تتوقف عن الاشتياق إلى رؤيتي كل يوم , ولكنه أوقف سيناريوهات الانتقام التي كانت ترسمها في عقلها عندما تخلو إلى نفسها وأزاح عن كاهلها عبأ إعادة السير في طريق المحاكم الطويل الذي لم يكن سيؤدي إلى حصول المجرم على الإعدام, مقتل سيد مشرط رفع عن أمي الإحساس بالظلم والغبن وأصلح التصدع الذي أصاب إيمانها وأعطاها الطاقة والحافز لمواصلة الاعتصام في الميدان.

كان كل يوم يحمل معه خبرا جديدا يؤكد أن اليوم هو أخر يوم, ولكن الأيام تتابعت سريعا ولم يحدث شيئًا, اتضح أن تلك الأخبار لم تكن سوى شائعات هدفها خداع الثوار من أجل إخراجهم من الميدان.

رغم ذلك ظلت أمي تنتظر وتأمل أن تشاهد نهاية النظام قريبا خصوصا بعد أن رأت مقدمات النهاية المتمثلة في احتراق مقرات الحزب الحاكم وانهيار جهاز الشرطة و تغيير الحكومة وهروب الوزراء ورجال الأعمال التابعين للنظام, قررت ألا تتعجل الفرح وانتظرت وصبرت وصمدت مع الصامدين.

في صباح اليوم الموعود أصيبت أمي بنزلة برد حادة فقررت أن تعود إلى المنزل حتى تحصل على قسط من الراحة.

عادت لتجد رامي جالسا في الصالون يتابع الأحداث أمام التليفزيون, لقد عاد سجينا في المنزل بأمر من مراد الذي عاقبه على الخروج عن طاعته بالحبس إلى أجل غير مسمى والحرمان من المصروف. لمعت ابتسامة واسعة على شفتيه وهو يخبرها أن نائب الرئيس سيلقي بيانا بعد قليل.

ردت عليه باستهانة:

- الكلام ده بيقولوه كل يوم.

- بس كل المحللين بيقولوا إن الخبر المرة دي بجد.

قالت له ممازحة :

- طيب أنا داخلة أنام ولما يبقوا يشيلوه ابقى صحيني .

بعد ساعتين جرى رامي على حجرة أمي وأخذ يهز كتفها برفق وهو يهتف بفرح :

- ماما اصحي, الرئيس اتخلع .

رفعت رأسها من على الوسادة في فزع, فركت عينيها وهتفت في دهشة " بتقول إيه ؟ " ارتمي رامي في حضنها وهو يهتف " الرئيس اتخلع يا ماما " لم تصدق أنها واعية و أن ما سمعته ليس جزءا من حلم روادها في المنام , وأن الفرحة التي تتراقص على وجه رامي حقيقية إلا عندما شاهدت نائب الرئيس يظهر على شاشة التليفزيون منكس الرأس حزين ممتقع الوجه, ليعلن أن الرئيس قرر التنحي وكلف القوات المسلحة بإدارة شئون البلاد . شاهدت عاصفة من التهليل والهتاف والتصفيق والزغاريد تجتاح الميدان, رأت صور شهداء الثورة ترتفع إلى أعلى وتتلون بلون الأضواء والصواريخ المتوجهة في سماء الميدان.

غمرتها فرحة الانتصار فضحكت , تخيلت أنني عدت للحياة وأنني أقف أمامها وأهنئها فغالبها البكاء, تطلعت إلى مراد ورامي فرأتهما يبكيان مثلها, احتضنتهما ووقفوا يقرؤون الفاتحة على روحي وأرواح جميع الشهداء.

الفرحة حررت أمي من أحزانها و ألآمها ولو لفترة مؤقتة . أحست أن الكون المختل عاد له توازنه أخيرا و أن الأشياء عادت لها ألوانها وأن الهواء صار نقيًا و أن الطقس صار صحوا, ولكنها شعرت أن فرحتها ناقصة و أنها لا يمكن أن تكتمل إلا إذا شاركتها مع الناس الذين قضت معهم أياما لا تُنسي في الميدان, تخلي مراد لأول مرة عن خوفه وتحفظه ووافق على مرافقتها مع رامي إلى الميدان من أجل الاحتفال بتلك اللحظة التاريخية .

***

في الوقت الذي كان فيه أفراد أسرتي في طريقهم للذهاب إلى الميدان كان عمي عاطف في طريقه للعودة إلى منزله. أخذ يسير بخطوات بطيئة متثاقلة

بينما كان الاصفرار يعلو وجهه والحزن يطل من عينيه كأنه تلقى نبأ وفاة أعز أصدقائه, ثبت بصره على الأرض حتى يهرب من نظرات الجيران التي كانت تسلخ جلده كالمكواة, كان من العسير عليه أن يصدق أن النظام الذي عاش في كنفه أكثر من نصف حياته انهار بتلك السرعة كأنه عمارة مبنية بأسمنت مغشوش .

كيف تسرب حلمه من يديه بسرعة كحبات الرمال رغم أنه لم يكد يمسكه ويستمتع به ؟ كيف يقابل الناس الذين كانوا يلاحقونه حتى يتوسط لتعيين أبنائهم و تخليص مصالحهم فيديرون ظهورهم له وينبذوه ويتهامسون حوله وينعتونه بالفلول ؟

كيف يعبر أمام مقر حزبه الحبيب الذي كان الناس من وقت قريب يتنافسون على تقديم أوراقهم للاشتراك فيه فيراه مهجورا وقد عبثت النيران بواجهته ودهنته بلون الرماد . كيف يهرب كبار رجال الدولة المحترمين من البلاد ويتحولون بسرعة إلى مجرمين تلاحقهم العدالة ؟. حاول عمي أن يخفف من شعوره بالمأساة الكبرى التي حلت عليه بأن يذكر نفسه بكلام أحد قيادات الحزب الذي كان يحب الاستهزاء بالثوار, كان هذا الرجل مؤمنا أن الثورة ستبوء بالفشل حتى بعد تنحى الرئيس.

عندما سأله عن سبب استمراره في الإيمان بفشل الثورة رغم سقوط النظام. أخبره الرجل أن النظام لم يسقط بل سقطت واجهته الأمامية فقط ,أما النظام من المستحيل أن يسقط لأنه متغلغل في جذور الدولة وفي عقول الناس من ألاف السنين, قد يتغير وجه النظام وقد يتغير شكله, ولكن جوهره سيظل باقيا إلى الأبد.

26 –

قررت نوران أن تحتفل بنجاح الثورة بأن تعيد إنشاء صفحة " أخبار ممنوعة ".

لم تضطر هذه المرة إلى إنشاء حساب مزيف أو استخدام برنامج حماية الخصوصية, استخدمت حسابها الحقيقي لأنها كانت تعتقد أن زمن الاستبداد انتهى ولن يعود مرة أخرى, وأن لا أحد سيقوى بعد اليوم أن يتعقبها أو أن يمنعها من نقل الحقيقة كما تراها.

وضعت إحدى صوري كغلاف الصفحة وكتبت تحتها " الصفحة مهداة للشهيد باسل هاشم " . ظلت تشعر بالحزن والعجز كلما تتطلع إلى صورتي, كلما تنظر إلي كان تراني أنظر لها وألومها لأنها تسببت في موتي .

حاولت أن تتوقف عن جلد ذاتها وتعذيب نفسها بأسئلة ليس من ورائها طائل, و أن تركز تفكيرها على الحاضر الذي شاركت في تغييره وعلى المستقبل السعيد الذي ينتظرها مع راجح, إذ كان يفصلها عن الزواج منه شهور قليلة.

كانت على وشك الذهاب إلى إحدى اجتماعات حركة لا لتكميم الأفواه عندما تلقت اتصالا هاتفيا من زميلتها الصحفية سحر السباعي, كانت سحر تعمل معها في جريدة الأيام ثم تركتها من سنة بعد أن حصلت على عمل كمحررة في إحدى الصحف القومية الكبرى, تحدثت معها سحر بلهجة جادة :

ـ أنا عايزه اقابلك ضروري انتي موجودة في البيت دلوقتي ؟ .

استغربت نوران من طلب سحر المفاجئ , و مع ذلك ردت عليها بترحاب:

ـ أهلا وسهلا بيكي بس ينفع بكره أصلي رايحة دلوقتي اجتماع للحركة.

هتفت سحر بلهجة تحذيرية :

- لا اوعي تروحي

- ليه ؟

- مش هقدر اقولك في التليفو, اسمعي كلامي , خليكي في البيت أحسن لك, وانا هاجي واشرح لك كل حاجة .

أخذت نوران تتجول في غرفتها, تنظر إلى الساعة, تحصي الدقائق والثواني وتحاول تخمين سبب زيارة سحر المفاجئة وسبب إصرارها على منعها من الخروج , أحست أنها محبوسة في سجن جدرانه مصنوعة من القلق والخوف, انتهت لحظات الانتظار ورن جرس الباب, فتحته فوجدتها تدخل عليها حاملة تحت ذراعها ملف كبير , لم تضيع سحر وقتها في السلام والتمهيد, طلبت منها أن تأخذها فورا إلى أي غرفة مغلقة , اصطحبتها نوران إلى غرفة نومها وأغلقت الباب , جلست سحر أمام مكتب نوران وأخرجت من حقيبتها ملف كبير , قبل أن تفتحه شرحت لها أن هذا الملف يضم مستندات سرية حصلت عليها اليوم تحتوي على تقارير مفصلة قدمتها إحدى الجهات الأمنية عن تحركات الأحزاب السياسية وجمعيات حقوق الإنسان والحركات الاحتجاجية ومن بينها حركة " لا لتكميم الأفواه " , هذه التقارير تحتوي على معلومات غاية في الأهمية والخطورة لدرجة أنها تخاف أن يرفض رئيس التحرير نشرها لأنها تمس سمعة العديد من الشخصيات العامة, لكنها قررت أن تعطيها نسخة من التقارير الخاصة بالحركة لأنها تحبها وتريدها أن تعرف الحقيقة.

تناولت نوران الملف من سحر بأعصاب متوترة, فتحته ثم أخذت تلتهم الأوراق بعينيها, كانت الأوراق تحتوي على تقارير مفصلة عن نشاط الحركة والاجتماعات والحوارات التي تدور بين أعضائها, ارتسمت على ملامحها علامات الصدمة عندما قرأت معلومات عن صفحة أخبار ممنوعة ووجدت التقرير يقول أنني كنت صاحب الصفحة.

قفزت بعينيها بين السطور حتى اصطدمت باسم الشخص الذي نقل كل هذه المعلومات, ألصقت عينيها بالأوراق ودققت النظر حتى تتأكد أن الاسم الذي قرأته صحيح. هزت رأسها في ذهول, أطلقت صرخة مكتومة, انتابتها رغبة مفاجئة في التقيؤ, أحست أن عقلها عاجز عن التفكير و أن رئتيها عاجزتين عن استقبال الهواء, وأن الأرض تدور حولها بسرعة شديدة, وأن جميع الأشياء صارت مشوشة ومتداخلة.

منذ وفاتي وهي تسعى لاكتشاف الحقيقة لأنها كانت تعتقد أن الحقيقة ستحررها من إحساسها بالذنب تجاهي وسترفع عن عقلها غشاوة الجهل, لكن الحقيقة التي قرأتها في هذه الأوراق بدت لها كمشهد من فيلم رديء غير مترابط الأحداث. كيف بإمكانها أن تصدق أن أهم عضو في الحركة وأعلاهم صوتا وأكثرهم حماسا وأشدهم كراهية للنظام كان في الحقيقة عميلا سريا لهذا النظام؟ .

أصيبت بالدوار حتى كادت أن تسقط من على مقعدها, أمسكتها سحر وأخذت تربت على كتفيها بعطف : " اهدي يا نوران , بلاش تعملي في نفسك كده "

هزت نوران رأسها وهتفت:

- اهدى إزاي ؟ اللي مكتوب في الورق ده مش ممكن يكون حقيقي

- لا حقيقي جدا , انتي مش عارفة إن الحقيقة أحيانا بتكون أغرب من الخيال , احمدي ربنا انك عرفتي الحقيقة دي قبل فوات الأوان

رحلت سحر وتركت نوران وحيدة ضائعة ومصابة بالشلل الجسدي والعقلي, رنين الهاتف أجبرها على التحرك, إنه راجح, لم تطق سماع صوته ولكنها خافت أن تثير شكوكه ,سيطرت على أعصابها وهمت بالرد عليه ,

بدا على صوته قلق مشوب باللهفة وهو يسألها :

- إيه يا حبيبتي اتأخرتي ليه عن الاجتماع ؟

تصنعت الرقة وهي ترد عليه :

- معلش يا حبيبي مش هقدر أجي النهاردة أصلي مشغولة في تحقيق مهم كان طالبه مني رئيس التحرير.

- تحقيق إيه ده ؟

ابتسمت بخبث وهي تقول له :

- إيه رأيك لو نتقابل بكره في الكافية بتاعنا واحكيلك عليه بالتفصيل ؟

***

اتجهت نوران نحو الطاولة التي يجلس أمامها راجح بخطوات بطيئة, ابتسم عندما رآها تقترب منه ثم تلاشت ابتسامته وبدا عليه القلق عندما رآها تنظر له بوجوم, بمجرد أن جلست أمامه سألها ," فيه إيه ؟" قررت أن تترك المستندات لتتحدث بالنيابة عنها , أعطت له ملف الحركة وطلبت منه أن يقرأه جيدا

هربت الدماء من وجهه وهو ينظر إلى الأوراق, لكنه استطاع أن يخفي اضطرابه بسرعة وهز رأسه مستنكرا :

-المستندات دي ملفقة وغرضها هدم الحركة بتاعتنا انتي من إمتى بتصدقي أي حاجة جاية من النظام ؟ و إزاي تصدقي إني ممكن أخونك وأخون الحركة وأنا كنت كل يوم معاكم في الميدان؟, أنا مش بكره في حياتي حد أكتر من الخونة .

جلست نوران تحملق في راجح بوجه متحجر وعينين حولتهما الصدمة إلى قطعتين من الجليد.

كانت تود بشدة أن تلبي نداء قلبها الذي يعشقه وتصدقه, لكن كيف تصدقه رغم أنه لم يقدم لها أي دليل قوي وملموس لإثبات براءته؟ , كيف تصدقه و تتجاهل جميع الأدلة التي تؤكد أنه كلمة السر الوحيدة وراء مقتلي ؟. لم تستطع أن تتحمل محاولاته اليائسة لنفي التهمة عن نفسه,

صاحت فيه:

- بلاش تستخف بعقلي. المستندات دي مش مزيفة واسمك مش ممكن يكون موجود هنا بالصدفة . أرجوك قولي الحقيقة. أنا خلاص تعبت من الكذب.

اكفهر وجهه و أطرق برأسه في الأرض مستسلما لإلحاحها ثم تمتم :

- الموضوع مش زي ما انتي فاكره. أنا اضطريت إني أتعامل معاهم غصبا عني .

انتي متعرفيش إنهم اعتقلوني من سنتين وعذبوني و وافقوا إنهم يخرجوني بشرط إني انقل لهم تحركاتكم, بس والله كل المعلومات اللي نقلتها لهم كانت تافهة .

- تافهة إزاي لما تتسبب في قتل باسل ؟

- والله ما كنت عارف إنهم هيقتلوه. أنا كنت فاكر إنهم هيقفلوا الصفحة بس أو بالكتير هيعتقلوه, هما كانوا مراقبين الصفحة وكانوا شاكين إنك صاحبتها لكن أنا قلت لهم على باسل علشان يبعدوا عنك . شوفتي أنا بحبك قد إيه ؟

- بتحبني إزاي ؟ إزاي بتربط الخيانة والكذب بالحب .

- إزاي بتقولي كده ؟ ده بدل لما تشكريني لأني حميتك

- يا ريتك كنت قلت لهم الحقيقة و بلغت عني, كان زماني مت واستريحت من العذاب اللي أنا عايشة فيه ده .

نزعت نوران خاتمها الذهبي المصمم على شكل زهرة اللوتس من بنصرها الأيمن ووضعته بهدوء على الطاولة . امتقع وجه راجح , تشبث بيدها وأخذ يتوسل لها قائلا , " أرجوكي بلاش تتسرعي, اديني فرصة أشرح لك موقفي " ,خلصت أصابعها من قبضته و ردت عليه ببرود وهي تنهض من مقعدها " مفيش داعي تشرح , أنا خلاص فهمت كل حاجة " ثم تركته و هرعت خارج المقهى مسرعة.

***

أخيًرا فهمت لماذا لم أشعر بالارتياح لراجح رغم أنه كان يعاملني دائما بلطف واحترام ؟, و لماذا شعرت بالانقباض عندما أعلنت لي نوران عن خطبتها منه ؟ لو كان كلامه صحيحا وكان مجبرا على الإبلاغ عني حتى ينقذ نوران فلماذا لم يحذرني ؟.

ربما لأنه تعمد أن يحرض النظام علي قتلي, و ربما لأنه قرأ علامات حبي لنوران في تصرفاتي فدفعته الغيرة للتخلص مني ,وربما لأنه ببساطة لم يأبه لحياتي. بغض النظر عن أسباب راجح ودوافعه فإن النتيجة واحدة.

النتيجة أنني لم اتعرض للقتل بل تعرضت للطعن من الخلف .

27 -

لم تقتصر أثار خيانة راجح على إحداث جرح عميق في قلب نوران فحسب بل أصابت علاقتها مع زملائها في حركة " لا تكميم الأفواه " بشرخ كبير , لم يصدقوا أنها فوجئت مثلهم أنه كان عميلا للنظام السابق: " إزاي تبقي خطيبته ومش عارفة تحركاته ولا حتى شكيتي فيه ؟" , انتي أكيد كنتي عارفة باللي بيعمله ومش بعيد إنك كنتي بتساعديه في التجسس علينا ".

اتهاماتهم لم تصدمها, لو كانت في مكانهم لداهمها الشك في كل من حولها, كبريائها منعها من الدفاع عن نفسها ففضلت أن تنسحب وتترك الحركة نهائيا.

قررت أن تخفي خبر خيانة راجح عن أمي خوفا من أن تغضب منها أو توجه لها نفس الاتهامات. حاولت أن تضمد جراحها وتمسح كل الذكريات التي جمعتها مع راجح من عقلها, تفاءلت خيرا عندما عرفت أن النائب هشام السباعي أحد أكبر المعارضين للنظام وأحد المشاركين في الثورة حصل على منصب رئيس الوزراء, لكنها لم تستطع الحفاظ على تفاؤلها بعد أن رأت الفوضى تتفشى و الأوضاع المعيشية والأمنية تتدهور بمعدلات سريعة ومخيفة والتحقيقات في مقتل الثوار تُحفظ وتقيد ضد مجهول,

وعندما قرر الثوار العودة للاعتصام في الميدان للمطالبة بإعادة فتح التحقيقات في مقتل رفقائهم قام البوليس بمطاردتهم وأطلق عليهم الرصاص واعتقل عددا كبيرا منهم . أصيبت نوران بصدمة كبرى عندما رأت رئيس الوزراء (

الثوري) هشام السباعي يكتفي بإصدار بيان يلوم فيه الثوار لأنهم أصروا على الاعتصام في الميدان ولم ينفذوا تعليمات البوليس الذي حذرهم من عواقب البقاء في الميدان وعدم العودة إلى منازلهم, لقد خلع هشام السباعي عنه ثوب الثورة و نسى أنه كان معارضًا بعد أن جلس على كرسي الوزارة و تحول بسرعة إلى موظف مطيع لدى سلطة جديدة لا تختلف كثيرا عن السلطة القديمة.

الصدمات التي توالت على نوران في المحيطين بها جعلت فيروس الشك يعزو عقلها ويدمر إيمانها بكل المبادئ التي آمنت بها وكل الأحلام التي سعت من أجل تحقيقها, صارت تشك في جدوى نضالها من أجل حقوق الإنسان وحرية التعبير بل وفي جدوى الثورة نفسها بعد أن وجدت أهلها و أقاربها وجيرانها يطلقون عليها اسم " نكسة " ويتحسرون على أيام الرئيس السابق ويقولون أن الثوار " عملاء للمخابرات الأمريكية والإسرائيلية أو شباب سذج تم التغرير بهم واستغلالهم لتنفيذ مؤامرة خارجية لهدم البلد.

تسلل إلى قلبها الإحساس بأن هذا المكان لم يعد وطنها لأنها لا تشعر فيه بالأمان وبالكرامة, وأهله ليسوا ناسها فجميعهم ينظرون لها بتشكك ويشيرون لها بأصابع الاتهام لأنها شاركت في الثورة التي أفسدت عليهم حياتهم, كان الطريق الوحيد المتاح أمامها هو الخروج من هذا المكان والبحث عن وطن آخر يحتويها و يعاملها بأدمية ويوفر لها الحرية والأمان.

تقدمت للحصول على منحة للحصول على الماجستير في الصحافة من إحدى الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية, بعد أسابيع قليلة تلقت الموافقة على طلبها. استقالت من صحيفة الأيام وأوهمت أهلها أنها ستعود إلى مصر

بعد أن تنتهي من الحصول على الماجستير لكنها عقدت العزم أن تضع حياتها في مصر في صندوق الذكريات المؤلمة وتقوم بإعادة تأسيس حياتها في مكان آخر.

مع اقتراب موعد سفرها عادت صورتي تلوح في مخيلتها وتعكر صفو يومها وتعذبها وتعيد فتح جروحها القديمة, أحست بأنها ارتكبت ذنبا كبيرا بإخفائها سر راجح عن أسرتي فقررت أن تصحح خطئها, قبل سفرها بأيام قليلة زارت أمي وأفصحت لها عن الحقيقة الكاملة كما قرأتها في الوثائق وعرفتها من راجح .

توقعت أن تستشيط غضبًا وتقوم بمهاجمتها, لكنها اندهشت عندما رأتها تبتسم لها قائلة:

- شكرا انك قولتيلي الحقيقة , انا كنت فاكره اني عمري ما هعرفها

سألتها نوران بتشكك :

- يعني حضرتك مش زعلانة من اللي حصل ؟

أجابت أمي بهدوء عجيب :

- لو كنت عرفت الحقيقة دي قبل الثورة كنت هبقى زعلانة جدا لكني دلوقتي أنا مش زعلانة لأن النظام اللي راجح كان عميل له خلاص سقط, و مصر اتغيرت ومش هترجع زي الأول

ابتسمت نوران بحزن ثم أخبرتها أنها جاءت لتودعها لأنها ستسافر بعد أيام إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال دراستها.

تطلعت لها أمي باندهاش و سألتها :

- معقول ,إزاي تسافري وتسيبي البلد في الظروف دي ؟

لاحت على شفتيها ابتسامة مريرة ثم غمغمت :

- البلد مش محتاجة للخونة اللي زيي .

- مش قال إنك خاينة , اوعي تسمعي كلام الناس الجهلة دول ,بكره يفوقوا ويعرفوا قيمة اللي عملتيه انتي والثوار للبلد .

ردت عليها بمرارة :

- مش لا هيفوقوا يا طنط , أنا لازم افوق قبل لما الاقي نفسي في السجن أو في المستشفى أو في القبر زي معظم الناس اللي نزلوا معايا في الميدان .

حدقت أمي في نوران بذهول وقالت لها :

- أنا مش مصدقة انك انتي نوران , ده كنتي واثقة من نجاح الثورة من قبل لما تبدأ وكنتي بتقوليلي ان معيار نجاح المظاهرة مش بعدد المشاركين فيها .

- اكتشفت اني كنت ساذجة , كنت بقول كلام إنشائي خايب, كنت بجري ورا شعارات و أحلام مستحيل انها تتحقق .

- لا مش مستحيل انها تتحقق, مشكلتك وانتي جيلك ان نفسكم قصير وبتتعبوا بسرعة , انتي محتاجة تصبري شوية, انتي مناضلة يا نوران والمناضل زي العسكري المفروض يفضل في مكانه بيحارب حتى لو مات في أرض المعركة. لكن العسكري اللي بيستسلم وينحسب من أرض المعركة لأنه خايف من الموت ده يبقى جبان وضعيف وميستحقش إلا الهزيمة .

- ومين قالك اني خايفة من الموت , أنا معنديش مانع اني أموت زي باسل ولا كل اللي ماتوا في الثورة بس المشكلة إن موتي مش هيفرق في حاجة ومش هيغير حاجة في البلد بل بالعكس مش بعيد ألاقي نفسي بتشتم واتلعن من الناس اللي أنا مت عشانهم .

لقد تقينت نوران أن البلد لن تغيير أبدا بعد أن كشفت لها نتائج الثورة أن المستفيدين من بقاء الحال على ما هو عليه أقوى وأكثر نفوذا ممن يريدون التغيير, وأن بعض من ثاروا على الاستبداد لا يبغون الحرية ولكنهم يريدون أن يحتلوا مكان المستبد .

لم توافقها أمي الرأي ولكنها أدركت من المرارة البادية في لهجتها أنها لن تتمكن من إقناعها بالبقاء فقالت لها بحدة : " لو عايزه تسافري انتي حرة , البلد مليانة مناضلين وأبطال كتير عندهم أمل وعزيمة أكتر منك "

كلام أمي أوجع نوران ولكنها لم ترد عليها لأنها تعبت من الجدال, هبت واقفة وهرعت نحو الباب , أدركت أمي في تلك اللحظة أن هذه ربما تكون آخر مرة ترى فيها نوران , نادت عليها ثم ركضت نحوها قبل أن تفتح الباب وهي تهتف :" انا اسفة يا نوران اوعي تزعلي مني يا حبيبتي , أنا مقصدش الكلام اللي قلته, أنا بس زعلانة لأنك مسافرة ".

اومأت برأسها في أسى: " أنا عارفة يا طنط , أنا مش ممكن أزعل منك أبدا ", اقتربت أمي منها ثم عانقتها بحرارة وقبلت وجنتيها وقالت لها :

- انتي عارفة انا بحبك جدا وكل لما بشوفك بحس اني شفت باسل وبحس انه لسه عايش عشان كده أنا مش عايزاكي تهاجري , ومش عايزاكي تيأسي, لازم ترجعي تاني , لازم تكملي اللي بدأتيه .

تأثرت نوران بكلام أمي فزحفت على عينيها دموع الفراق, ولكي تخفف عن نفسها وطأة الوادع قدمت لأمي وعدا لم تعرف إذا كانت ستتمكن من تنفيذه :

- أوعدك يا طنط ان غيابي مش هيطول .

***

ظلت أمي واثقة أن الثورة ستنتصر وستحقق جميع أهدافها رغم المصاعب والمعوقات التي حدثت في الفترة الانتقالية التي أعقبتها, لم تتأخر عن المشاركة في المظاهرات المطالبة بإعادة فتح التحقيقات في مقتل الثوار, كانت تقدم العزاء في الشهداء وتزور المصابين في المستشفى, وتتظاهر أمام أبواب المحاكم للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين. , أما رامي فكان مثل أمي يملك تفاؤلا غير محدود بنجاح الثورة, لكن تفاؤله انكمش و حل محله الخوف والإحباط بعد أن شارك في بعض الاعتصامات والمسيرات ورأى الشرطة تعود إلى وحشيتها السابقة في التعامل مع المتظاهرين, اكتشف أن النظام القديم لم يسقط وأن مطالب الثورة لن تتحقق بعد أن رآها تتحول من انتفاضة شعب يريد التخلص من الديكتاتورية والحصول على العدالة الاجتماعية والحياة الكريمة إلى لعبة بين مجموعة من السياسيين الانتهازيين الذين يخدعون الشباب الثائر بالشعارات ويستخدمونهم كأداة لعقد صفقات مع النظام القديم والحصول على مكاسب شخصية.

هذه الاكتشافات جعلت رامي يتراجع عن المشاركة في المظاهرات ويعود إلى مقاعد المتفرجين, وسرعان ما عادت روحه إلى خمودها السابق وارتد له إحساسه بالضياع وانعدام المعنى.

اتهمته أمي بالتشاؤم وضعف الإرادة لكنها بعد فترة وجيزة وجدت نفسها على وشك السقوط في نفس الحفرة التي سقط فيها, بدأ حماسها يخفت وتفاؤلها يضمحل بعد أن تأكدت أن سقوط النظام كان خدعة, وبعد أن رأت الثوار ينقسمون ويتشتتون ويتفتتون ويتحولون إلى عشرات الأحزاب والفرق

والحركات, وكل مجموعة منهم تدعي أنها التي قامت بالثورة وتسخر من الفريق الآخر وتشكك في وطنيته وتتهمه بالعمالة.

رغم ذلك حاولت أن تتعلق بخيوط الأمل القليلة المتبقية أمامها, حاولت أن تقنع نفسها أن هذه الفرقة مؤقتة وأن الثوار سيصلحون أخطائهم وسينبذون خلافاتهم .

لبت دعوة وجهها لها رئيس حزب تم إنشاؤه حديثا للحديث عن كيفية تحقيق مطالب الثورة. بعد أن بدأت في الحديث فوجئت بإحدى السيدات تهب واقفة لتقاطعها بسؤال:

- ممكن أعرف حضرتك ليه بتطلعي في كل ندوة وتتكلمي باسم الثورة ؟

استولى عليها الحرج وانحشرت الكلمات في حنجرتها فاضطر مدير الندوة أن يرد بالنيابة عنها :

- مدام سوسن كانت معانا في الثورة غير إن ابنها باسل من الشهداء .

قالت له السيدة بانفعال:

- وإيه يعني ؟ ما فيه ناس كتير شاركوا في الثورة بس ده مش معناه إنهم يعملوا نفسهم أساتذة في السياسة ويتكلموا باسم الثورة. أنا أحق منها بأني اتكلم عن الثورة لأن ابني استشهد في الميدان لأني هي ابنها استشهد قبل الثورة .

ابتسمت أمي للسيدة في سخرية وأشارت لها بيدها :" عندك حق , تعالي حضرتك مكاني واقعدي اتكلمي عن الثورة زي ما انتي عايزة ", لم تستجب أمي لنداء مدير الندوة الذي اعتذر لها عن قلة ذوق تلك السيدة وطلب منها العودة, أصرت على الانصراف من القاعة وهي تشعر بالحرج و الندم العميق على مشاركتها في تلك الندوة .

***

في الوقت الذي كانت فيه أمي في طريقها للعودة إلى المنزل, كان رامي عاد بالفعل إلى المنزل من الكلية بعد أن اطلع على نتيجة امتحان نهاية العام, واكتشف أنه رسب في مادتين, لم تصدمه نتيجته ولم تحزنه لأن الدراسة لم تعد من أولويات حياته, عندما دخل الشقة فوجئ بوالده يجلس في حجرة المعيشة, ما أن رآه مراد حتى تهلل وجهه , سأله إذا كان ذهب للكلية حتى يعرف درجاته وتقديره . كان يتوقع أن يبشره بحصوله على تقدير جيد مثل الترم الأول, كان بإمكان رامي أن يكذب ويقول لأبيه ما يريد أن يسمعه, لكنه وصل لمرحلة لم يأبه فيها بأي شيء حتى بمشاعر أبيه , قال له بشكل مباشر وبهدوء شديد : " أنا سقطت في مادتين"

امتقع وجه مراد وأخذ ينتفض ويرتعش كأنه أصيب بالحمى. اقترب من رامي وأمسك بذراعيه بعنف وأخذ يصيح فيه متسائلا :" معقول سقطت طب إزاي ؟ , اومال مكنتش بتذاكر ولا إيه , اومال كنت بتعمل إيه طول السنة ".

صياح مراد وصل لأذني أمي التي دخلت الشقة , انزعجت عندما رأته يهزه بعنف و يقول له : " رد عليا , انت كنت بتكذب عليا وبتقولي إنك بتذاكر وانت بتلعب؟"

اقتربت منه وعلى وجهها علامات الخوف وسألته " فيه إيه يا مراد بتزعق ليه , صوتك واصل بره الشقة ؟".

تطلع إليها بغضب ثم رمق رامي بقسوة وقال له بلهجة آمرة :" ما تقول لأمك فيه إيه , ما تبشرها بالخبر السعيد ". غطى الشحوب ملامح رامي وأطرق برأسه في الأرض, فاضطر مراد أن يخبرها برسوبه.

غطت أمي وجهها بيديها ثم أخذت تجول ببصرها بين رامي ومراد بذهول وتهتف بلا وعي " مش ممكن". لم تصدق أن رامي الذي لم يتزحزح قط عن المركز الأول طول حياته يمكن أن يلتصق اسمه بالرسوب. انتظرت منه أن يعطيها تفسير أو نفي أو اعتذار لكنها وجدته صامتا باردا كأن الخبر لا يخصه , اقتربت منه وأخذت تحدق فيه , اندهشت لأنها لم تجد أي مشاعر على وجهه , لم تجد حزنا أو قلقا أو خجلا أو ضيقا, أحست أنها تنظر إلى شاب غريب لا تعرفه, إنه ليس رامي ابنها الصغير الوسيم ,لقد تغيرت ملامحه وصارت أقرب إلى ملامح رجل عجوز هزمته الحياة, وانطفأ بريق الشباب الذي كان يشع من وجهه, وتناثرت التجاعيد فوق جبهته وحول شفتيه وعينيه رغم أنه لم يبلغ العشرين من عمره. شعرت بالألم والحزن على الحال الذي وصل إليه, ولكنها لم تغضب منه بل التمست له العذر, اقتربت منه وربتت على كتفه بحنو:

-معلش يا حبيبي, اللي إنت شفته وعانيت منه السنة دي طبيعي انه يأثر عليك بس انت أكيد هتعوض كل ده وهترجع أشطر من الأول ؟

رد عليها باستهانة :

-لا أنا معادش يهمني إني أبقى شاطر, أنا زهقت من المذاكرة وزهقت من كل حاجة في الدنيا.

- معقول ؟, انت اللي بتقول الكلام ده , ليه يا بني كده ؟ انت عايز تضيع مستقبلك؟

- مستقبلي ايه ؟, المستقبل وهم احنا بنجري وراه , مفيش حاجة في الدنيا دي تستاهل إن الواحد يتعب علشانها.

- لا يا رامي , متخليش حزنك على أخوك يضيع حياتك , لازم تعرف إن الحياة مش بتقف على حد , لازم ترجع تعيش زي الأول, لازم ترجع رامي اللي أنا عارفاه .

ندت عنه ابتسامة مريرة وقال لها :

- طب لو عرفتي ترجعي زي ما كنتي الأول هبقى أنا أرجع زي الأول.

أدار ظهره لها وهرع خارجا من الشقة , جرى مراد ورائه هاتفا " انت رايح فين تعال هنا ". ضغط رامي على زر المصعد وهو يزفر " أرجوك يا بابا سيبني اخرج أنا معدتش خلاص طايق أقعد في البيت ده " .

عاد مراد إلى الشقة ليجد أمي تتطلع إليه باندهاش وتسأله

" مش عارفة إزاي رامي اتغير كده ؟"

سؤالها استفزه وفجر طبقات الغضب المتراكمة في قلبه, انتفخت عروقه واحمر وجهه وتطاير الشرر من عينيه وهو يشير إليها مدمدما :

- انتي السبب , انتي اللي عملتي فيه كده , انتي اللي ضيعتيه عشان تنتقمي مني لأنك لسه فاكره اني اللي موت ابنك .

هتفت مستنكرة :

- انت بتخرف تقول إيه ؟ , انت ناسي ان رامي يبقى ابني أنا كمان .

- لا مش ابنك ,انتي فاكرة إمتى أخر مرة قعدتي معاه وسألتيه عن أحواله ولا أخر مرة سأليته رايح فين ولا جاي منين , ولا أخر مرة حطيتي له فيها الفطار ولا الغدا ولا اطمنتي عليه قبل لما ينام

استولى عليها الحرج ثم تمتمت :

- غصبا عني يا مراد , ما انت عارف اني كنت مشغولة جامد الفترة اللي فاتت و....

- عارف يا حضرة المناضلة السياسية الكبيرة انتي قد إيه كنتي مشغولة في تحقيق أهداف الثورة المجيدة .

لهجته المتهكمة وخزتها فقالت له بحنق :

- بلاش تتكلم بالطريقة دي, بص أنا عارفة اني مقصرة في حق رامي ....

- في حق رامي بس ...

- وفي حقك كمان وأنا آسفة

- آسفك جاي متأخر اوي يا سوسن , بصي أنا صبرتك عليكي كتير واستحملت منك حاجات مش ممكن يستحملها أي راجل تاني , أنا كنت فاكر إني باكفر عن أخطائي في حق باسل , لكن أنا مش عايز ابني يدفع التمن, انتي ممكن تكوني شايفة ان الثوار هما أولادك لكن أنا معنديش إلا ابن واحد بس طلعت بيه من الدنيا, وانا مش ممكن أسيبك تضيعيه لازم أنقذه بأي طريقة , أنا شايف انه أحسن حاجة ان كل واحد فينا يروح لحاله وأنا مستعد اتولى مسئولية رامي لوحدي .

فغرت فاهها واتسعت عيناها من الذهول وهي تسأله :

- معقول انت عايزنا نتطلق يا مراد ؟

- انتي شايفة اننا لسه متجوزين يا سوسن ؟

كلامه سقط على رأسها كأنه دلو من الماء البارد فأيقظها من الغيبوبة الطويلة التي عاشت فيها , أمسكت رأسها وصاحت بطريقة هيسترية :

- أنا مش عارفة اقول إيه ؟ أنا مش عارفة أفكر, أنا مش عارفة أعمل حاجة ؟

لانت ملامحه قليلا ثم تطلع إليها بشفقة وقال :

- أنا هسيبك شوية تفكري في الكلام اللي قولته وتراجعي نفسك قبل لما ناخد القرار النهائي.

غادر مراد المنزل بينما انهارت أمي على المقعد ودفنت رأسها بين ذراعيها في صمت, أخذت تفكر في الأحداث العديدة المتوالية التي تعاقبت عليها وعلى الأسرة منذ وفاتي, فكرت في رامي , ابنها الوحيد تجرع مرارة الحزن والفقد والظلم قبل أن يعرف معنى السعادة والحياة والحب , فكرت في مراد الرجل الخجول المتحفظ الذي لم يقل لها يوما أنه يحبها لكنه لم يتوقف عن إثبات حبه لها كل يوم بكل الوسائل المتاحة أمامه, ولم يتوقف عن مساندتها وحمايتها من نفسها حتى عندما كانت تكرهه و تنفر منه وترغب في الابتعاد عنه .

أحست أنها كانت مخطئة عندما اعتقدت أنها خسرت أغلى شخص لديها في الحياة بوفاتي , أحست أنها تسببت بدون أن تقصد بإصابة أعمدة بيتها بشروخ عميقة ولكي تمنعه من الانهيار لابد أن تتخلى عن الطريق الجديد الذي اختارته لنفسها منذ الثورة , لقد سارت فيه اعتقادا منها أنها بذلك تستكمل مسيرتي , ولكنها أدركت أنه طريق جبلي وعر مليء بالحفر والمطبات والمتاهات لن يجلب عليها إلا المتاعب والمعاناة , إنها لن تستطيع أن تقضي بقية حياتها في المحاكم واقسام الشرطة والمستشفيات ولن تحتمل أن تكون طرفا في المعارك والسجالات الدائرة بين القوى الثورية والسياسية المتطاحنة, وأملها في أن يعود الثوار عائلة واحدة لن يتحقق أبدا لأنهم لم

يكونوا يوما عائلة, بل جمعتهم مصلحة واحدة و بعد أن انتهت تلك المصلحة عاد كل منهم إلى فريقه الأصلي.

بعد أن عاد مراد إلى المنزل سارعت أمي بالاعتراف له بخطئها وطلبت أن يلقي الماضي ورا ظهره و يعطيها الفرصة لكي تفتح معه صفحة جديدة من حياتهما, أعطته وعدا صادقا بأنها ستعود سوسن القديمة التي يعرفها, و بالفعل استطاعت أن تفي بوعدها, توقفت تماما عن المشاركة في المظاهرات والاعتصامات والندوات وقامت بمسح أرقام جميع السياسيين والنشطاء والحقوقيين من هاتفها.

هجرت حجرتي وعادت إلى حجرة نومها التي تجمعها مع مراد, تخلت الأسود وعادت ترتدي ملابسها الملونة, تخلت عن كسلها وعزلتها وعادت تهتم بشئون المنزل وعادت تجتمع على مائدة السفرة مع رامي ومراد , تخلت عن الصمت والوجوم وعادت تبتسم وتمزح وتتحدث معهما في أمور الحياة اليومية, رغم أن هذه التغييرات أرضت مراد وجعلته يقتنع أن زوجته عادت له وأثبتت لرامي أن الحياة يمكن أن تستمر رغم كل شيء, لكن أمي كانت تشعر أنها تخدع نفسها وتخدعهما بما تفعله وأن هناك حاجزا ضخما يحول بينها وبين العودة فعلا إلى شخصيتها القديمة, إنها لا يمكن أن تعود إلى الإنسانة التي كانت عليها في الماضي , لأن هذه الإنسانة تحطمت يوم وفاتي ولم يتبق منها سوى أشلاء مبعثرة , والبديل الوحيد المتاح أمامها هو أن تجمع هذه الأشلاء و تصنع منها شخصية جديدة صبورة متصالحة مع الواقع, قادرة على الحياة والاستمرار من أجل رامي ومراد .

***

كان أبي محقا عندما حذرني من متابعة الأحداث التي وقعت بعد وفاتي لأن ما رأيته أحزنني وشغلني عن الاستمتاع بالمكافأة التي منحها الله لي, لذلك قررت التوقف عن متابعة ما يحدث في الأرض بعد أن عثرت على الإجابات التي كنت أبحث عنها وأيقنت أن الله أخذ روحي من الدنيا في الوقت المناسب .

قبل أن أغلق النافذة التي أطل منها على الأرض قررت أن أبعث برسالة أخيرة إلى أمي.

***

وقفت أمي في الشارع وأخذ تهتف باسمي , لم تتلق ردا , طرقت أبواب الشقق , أخذت تسأل الناس عن مكاني , أخبروها أنني كنت هنا وغادرت ولا يعلمون أين ذهبت, عادت إلى المنزل حزينة محبطة بعد أن يئست من العثور علي , فتحت باب حجرتي, رأتني أجلس على فراشي ابتسم لها, اتسعت عيناها من الذهول, اقتربت مني وأخذت تتفحص ملامحي بلهفة وشغف حتى تأكدت أن من يقف أمامها هو أنا , ابنها باسل, جرت علي واحتضنتني بقوة فغمرها الدفء المنبعث من جسدي وجعلها تطمئن أنني لازلت على قيد الحياة, سألتها :

- انتي كنتي فين ؟

- انا كنت بتدور عليك , انت اللي كنت فين ؟

- أنا هنا بلاش تدوري عليا بعد كده , أنا معاكي طول الوقت, أنا هنا , أنا دايما هنا ,

أومأت برأسها وهي تبتسم , ظلت تحمل ابتسامتها حتى فتحت عينيها واكتشفت أنها كانت تحلم , لكن حلمها كان حقيقيا جدا لدرجة أنها لم تستطع أن تفرق بينه وبين الواقع, غادرت فراشها وهي تشعر بالسكينة تغمر قلبها, اتجهت بدون وعي لتفتح باب النافذة , رفعت رأسها وتطلعت إلى السماء, وجدتها زرقاء زاهية صافية تسر النظر والقلب, تأملتها قليلا , رأت سحابة تقف وحيدة في منتصف السماء مرسومة على شكل نافذة بيضاء مستطيلة, تطلعت إلى السحابة بانبهار , ابتسمت وهتفت في سرها " سبحان الله " , أغلقت النافذة ثم عادت إلى الغرفة.

تمت بحمد الله

ياسمين خليفة

القاهرة - 2015

ياسمين خليفة أدبية ومدونة مصرية. حصلت على بكالوريوس من كلية الإعلام جامعة القاهرة قسم إذاعة وتليفزيون, صدرت لها رواية بنت وولد عن دار ليان عام 2014 والمجموعة القصصية الهيئة السرية للتخلص من المواطنين عام 2017 عن دار حروف منثورة للنشر الالكتروني.

نُشرت مقالاتها وقصصها القصيرة في العديد من المواقع الالكترونية منها شباب الشرق الاوسط وموقع الرأي وموقع الأدب العربي وهي صاحبة المدونة الادبية حكاياتي.

للتواصل مع الكاتبة

البريد الالكتروني :

yasminewriter@gmail.com

صفحة جودريدز

https://www.goodreads.com/author/show/773
9218._

صفحة الفيسبوك

https://www.facebook.com/yasmin.kalifa

مدونة حكاياتي

https://hekaty.blogspot.com.eg/

فتحت عيناي لأجد نفسي واقفاً في حجرة صغيرة منخفضة الإضاءة, تملكني الرعب عندما نظرت إلى الأسفل ولم أجد جسـدي. أين أنا ؟ ماذا حدث لي ؟ كيف أتيت إلى هنا؟.

بحثت حولي ففوجئت أن جسـدي مُلقى على فراش الحجرة ومغطى بملاءة بيضاء, ازداد شعوري بالرعب. كيف ولماذا انفصلت عن جسـدي ؟.

ظننت أن هذه المشاهد جزءًا من حُلم غريب انزلقت إليه بعد غيابي عن الوعي, ولكني اكتشفت أن ما اعيشـه حقيقة أغرب من الاحلام _عندما سـمعت صوتاً رخمياً يهتف باسـمي.

إنني أعرف صاحب هذا الصوت جيداً رغم أنني لم اسـمعه يناديني منذ زمن بعيد.

استدرت لأجد أبي واقفاً بجوار دراجتي التي اشـتراها لي عندما كنت صغيراً. كان كما رأيته أخر مرة شـاباً بهي الطلعة يرتدي جلباباً أبيض, تحيط به هالة ذهبية من النور وتزين وجهه ابتسـامة مشرقة.

كنت مشـتاقا لرؤيته بشـدة, ركضت نحوه لكي احتضنه فأنعش نوره روحي.

سألته :

كيف نزلت إلى هنا ؟

ابتسم قائلاً :

أنـا لم أنزل إليك , أنت الذي جئت إلي.

سألته بخوف :

هل أنا ميت ؟

ظل محافظا على ابتسـامته وهو يجيبني :

هذا اللفظ لا يناسـب عالم الأرواح الذي دخلته, الأرواح لا تعرف الموت , كل ما في الأمر أن روحك غادرت الأرض لكي تبدأ مرحلة أخرى من الحياة, والحياة التي ستعيشـها في هذه المرحلة سـتكون أفضل كثيراً من حياتك الدنيوية لأنك سـتعيش بدون احتياجات جسـدك وقيود عقلك.

لا تخف واركب معي الدراجة وستكتشـف كل شيء.